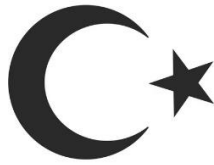


سلسبیل المقطري



من بقايا الذاكرة

تہ سلسملہ ردین تُوژوندیلہر

ھیرا مائارپ نہ شریاتی

تأليف: سلسيل المقطري

مراجعة: لقمان حرائي

تصميم الغلاف: حنان الشرجي

ئاپتۇرى: سەلسەبىل ئەلمۇقتەرى
تەكشۈرۈپ بىكىتكۈچى: لوقمانجان ھىرائى
مۇقاۋا لايىھىلىگۈچى: ھەنان ئەششەرجەبى

الإهداء

إلى أولئك الذين لن يقرأوا هذه الرواية
إلى الذين يعيشونها حقاً وصدقاً صباح مساء
ليعلموا أنهم ليسوا بمفردهم
وبأننا نتداعى لهم بالسهر والحمى

بېغىشلىما

دۇنيا مەدەنىيىتىنىڭ بۆشۈكى، ئىنسانلارنىڭ - تېخىمۇ توغرىسى تۈركلەرنىڭ ئەڭ قەدىمى ئانا ۋەتىنى بولغان شەرقىي تۈركىستان نىجىس خىتاي ئىشغالىيەتچىلىرىنىڭ تاپىنى ئاستىدا چەيلىنىۋاتقان بۈگۈنكى كۈندە، دۇنيا بۇ ئېچىنىشلىق تىراگىدىيەلەرنى بىلمەستىن، بىلىمى بىلگىسى كەلمەستىن گاس-گاچا ۋە كور بولۇپلا ياشىماقتا.

نەگىلا قارىساق نە بىر ئېرىقداش بولغان خوشنا-خولۇملاردىن، نە بىر دىنداش بولغان ئاتالمىش ئىسلام دۆلەتلىرىدىن توخۇنى «تاخ»، مۈشۈكنى «پەش» دېگەنچىلىك بىر سادا چىقمايۋاتقانلىقى ئاز كېلىپ، دائىم ياۋ سېپىدە ئورۇن ئېلىۋاتقانلىقى بىزنى تولىمۇ ئەپسۇسلاندۇرماقتا.

(إنما المؤمنون اخوة) مۇئمىنلەر ھەقىقەتەن قېرىنداشلاردۇر. سۈرە ھۇجرات 10-

ئايەت

بەرھەق! ھەقىقەتەن مۇئمىنلەر قېرىنداشتۇر، پەقەت ئاللاھ ئىمان لەززىتىنى ئىنئام قىلغان بەختلىك كىشىلەرلا ئۆز قېرىنداشلىرىغا بۇ مېھرىنى يەتكۈزەلەيدۇ ۋە يەتكۈزۈش شەرىپىگە نائىل بولالايدۇ. بۇ ئۆز نۆۋىتىدە تولىمۇ كاتتا نېمەتتۇر. ئەمما ئەپسۇس، مىڭلارچە ئەپسۇس...

ئادەم ئاتىنىڭ زامانىدىن باشلاپ تا ھازىرغىچە ئىنسانىيەت تارىخى خاتىرلەپ باقمىغان ۋەھشىيەنە قىرغىنچىلىق ۋە تالان-تاراجنىڭ ئارىسىدا ئاچچىق ئىگراۋاتقان بىزلەرنىڭ بۈگۈنكى تىراگىدىيىمىزنى ئاسىيا قىتئەسىنىڭ بىر بۇرجىكىدە، توك يوق، سۇ يوق، نان يوق، پەقەت ئۆلۈملەر بار بولغان يىراقتىكى قۇم باسقان ئۇزاق مەملىكەتتىن بىر نىدا دۇنياغا خىتاپ قىلدى.

بۇ كىتاپتا «ئەي دۇنيا! ئەي مۇسۇلمان! كۆزۈڭنى ئاچ، بىز ئاچارچىلىق ئىچىدە ئۆلۈۋاتقان بولساقمۇ، دۇنيادا بىزدىنمۇ ئېغىر كۈندە قالغان كىشىلەر بار، مۇسۇلمانلارنىڭ شەرقتىكى قارارگاھىغا تاجاۋۇز قىلىنىۋاتىدۇ، ئۇيقۇڭدىن ئويغان!» دەپ نىدا قىلىنماقتا ئىدى.

بۇ دەل ئازاپ-ئوقۇبەتلىرىنى يېزىپ كەلسە، قانچىلىغان توم رومانلار ئۇنىڭ ئالدىدا بويۇن قىسىپ قالدىغان، ئەڭ نامرات دۆلەتلەر تىزىملىكىدە دائىم ئالدىنقى قاتاردىن ئورۇن ئالىدىغان يىراق «يەمەن جۇمھۇرىيىتى» دىكى بىر مۇسلىمە ھەمشىرىمىزنىڭ، 100 ئادەمدىن سورتىدا 90 نى بىلمەيدىغان ئەرەبلەرگە ئۆتمۈشىمىزنى ۋە ھازىرىمىزنى تونۇتۇش ئۈچۈن، تەۋرىتىلگەن قەلەمنىڭ مەھسۇلىدۇر.

ئۆزى بىرەر قېتىمىمۇ بېرىپ باقمىغان ۋە تولىمۇ يىراقتىكى تونۇلمىغان بىر مىللەتنىڭ ئومۇميۈزلۈك ئەھۋالىنى بۇنچىلىك تولۇق ئىپادىلەش بەسى مۈشكۈل بىر ئىش ئەلۋەتتە.

بۇ ھەمىشە بىزنىڭ بىر نەچچە يىللار بىز ئۇيغۇرلار ھەققىدە ئىزدىنىپ ناھايىتى ناچار بىر شارائىت ئاستىدا بۇ كىتاپنى روياپقا چىقىرىشى ئۇنداق ئاسانغا توختىمىدى.

(من لا يشكر الناس لا يشكر الله) دىگەن ھەدىسنىڭ روھىغا ئاساسەن ۋە ئەرەب تىلىدا بىزنىڭ بۈگۈنمىز رۈشەن يورۇتۇپ بېرىلگەن مەزكۇر ئەسەرنىڭ تۇنجى ئوقۇرىمىنى بولۇش سۈپىتىم بىلەن ئۆزۈم ۋە شۇنداقلا بارلىق ئۇيغۇر قېرىنداشلىرىمغا ۋاكالىتەن بۇ سىڭلىمىزغا رەھىمىتىمنى بىلدۈرىمەن!

ئەي ھەمىشە سەلسەبىل! رەھمەت سىزگە، تولىمۇ كۆپ جاپالار بىلەن بۇ ئەسەرنى يورۇقلۇققا چىقاردىڭىز، ئۇيغۇر مۇسۇلمانلىرى ئۈچۈن قىلغان بۇ ئەمگىڭىزنى ئاللاھ قوبۇل قىلسۇن! ئاللاھ سىزنى فېردەۋىس جەننىتى بىلەن مۇكاپاتلىسۇن! ئامىين

ھۆرمەت بىلەن: لوقمانجان ھىرائى

2019-يىلى 3-ئاينىڭ 13-كۈنى

ئىستانبۇل

الفهرس

10.....	الفصل الأول
35.....	الفصل الثاني
51.....	تالفصل الثالث
74.....	الفصل الرابع
90.....	الفصل الخامس
104	الفصل السادس
115	الفصل السابع
123	الفصل الثامن
136	الفصل التاسع
147	الفصل العاشر

إليك أيها القارئ..

أريدك أن تعلم بأي ما كتبت هذه الرواية بجبر القلم وإنما بدماء القلب، لن أكذبك القول إن أخبرتك بأي لم أحتج إلى الخيال كثيراً لإتمامها، فقد كانت كل الأحداث تتدفق إليّ كالسيل من أرض الواقع وتجتاحني بمرارة فأخرجها كلمات ملتهبة. حتى أنني لم أغير في بعض الأسماء، جعلت بعض الأبطال ينطقون قصصهم بألسنتهم حتى تصل إلى قلبك كما هي. حاولت أن أتحري الدقة في نقل المعلومة لك، جسدتُ صوراً حقيقية من آلام منسية، حاولت أن أتسلل إلى القصص السوداء وأجملها قليلاً حتى لا تفرعك بشاعتها، فتكون هذه الرواية بوابة معرفة بينك وبين تركستان فماهي إلا غيض من فيض..

عرفتُ الأويغور من أبنائه عن قرب تلمستُ آلامهم وعرفتُ همومهم، ذلك الشعب الصامد الصابر العظيم لن أوفيه قدره ولو استعرتُ مفردات اللغة كلها. أحببتُ تركستان كما لو أنني شربتُ مائها وتنفسْتُ هوائها، تلك البلاد العملاقة التي أنجبتُ للأمة الإسلامية كبار العلماء. تركستان هي الأم الرؤوم للترمذي، والبخاري، وابن سينا، والفارابي وآلاف العلماء غيرهم. تركستان هي محض الحضارات فلا تسلي عن إمبراطورية الهون، وتغبلر، وتوتلكر، والدولة السلجوقية. تلك البلاد أخذت قوتها من سيف القائد ألب أرسلان، وتقلدت بفخر عظمة القائد أرطغرل بيك، ولادة القادة ومُنشأة السادة. ولا يأخذك العجب من مدينة تورفان الواقعة وسط صحراء تاكلامكان القاحلة وكيف حولها الأويغور إلى واحة خضراء جميلة تنتج أفضل أنواع العنب، ببناء قنوات كارز المائية التي تأتي بمياه الغيول من جبال تانريه من مسافات بعيدة محتقرا كل أنواع الصعاب، فما ظنك بالإنسان الأويغوري الذي فجر في الصحراء جنة خضراء ..

بدى واضحًا الآن لم تصب الصين بإحتلالها عذاب سقر على إخواننا المسلمين هناك،
ولماذا تسكت كل قوى العالم على ظلمها وبطشها. لأنهم يدركون تمامًا أن أمة الإسلام لا
تستطيع أن تنهض وضرعها الشرقي مهشم، هذا الجناح الذي لن يحلق صقرنا مجددًا إلا به..

#سلسبيل_المقطري.

#تركستاننا_المنسية.

الفصل الأول

تسارعت النبضات، الضيق بدى واضحًا، الزفرات تعلو، التأفف يتوالى، والهاتف يتقلب بين يدي جيو، ضاقت عيناه ونفذ صبره. ثم بعد المحاولة الخامسة أجاب شيان على الهاتف، صرخ جيو في أذنيه كطبول معلنة بداية الحرب:

- " أين أنت يا رجل؟ كم تنام؟ تذكرني بآكل النمل ينام 18 ساعة في اليوم.. منذ ساعة وأنا أحاول الوصول إليك.. لقد خرجت منذ الصباح.. وأنت لا تزال تتقلب على سريرك..".
- "لا تصرخ يا هذا.. يبدو أن لا أحد يمكنه أن يرتاح هنا!!!!.. كنت منشغلا بأمور مهمة البارحة..". برود معتاد، كان يغير وضعية نومه، ويعدل الغطاء على جسده.
- " نعم يا صديقي.. بالتأكيد.. أنت لا تستطيع أن تترك أعمال الشركات الضخمة التي تمتلكها لتكمل مشروع التخرج.. أيها الصحفي المحترم..". كان يبتسم ابتسامة صفراء ذات معنى.

تقلب مرة أخرى على السرير، وضرب بكفه على جبينه:

- " آآآآآآآآآآ.. لقد نسيت أن ذلك الأبله.. يريد المشروع في نهاية الشهر القادم..".

ثم غير لكنته لتصبح كأنه محاضر في جامعة:

- " لن أقبل بالقصص العادية أريد شيئًا خياليًا شيئًا أعظم وأعجب من سور الصين العظيم..".

ثم أضاف بلهجته الاستهزائية:

- " قال سور الصين قال.. لا يعلم بأني لم اختر هذا التخصص إلا لأنه أسهل من بقية التخصصات.. لم أخلق للدراسة يا رجل.. أنا طير.. أطيّر في السماء بلا قيود..".

ثم قهقهها معًا، وقال الآخر متحديًا:

- " سنرى إلى متى سيصمد جناحك أيها الطير الكاسر.. لا تطل الوقت دعنا نبدأ بالعمل لا تجعل منا مسخرة لبقية الطلاب.. خاصة..روفي .. ذلك المتعجرف يريد أن يكون أفضل منا أمام البقية.. هذه حربنا ضده يا شيان.. سألتقيك في مقهى الطلبة سأكون في مكاننا المعتاد..".

ثم أقفل الخط، ودس هاتفه في جيب بنطاله الرياضي، هو يعرف شيان من مدة طويلة خبره كما خبر نفسه. شاب كسول يحب الرخاء واللهو، شاب لا تحده ضوابط ولا قوانين هذا ما يقوله دائما:

- "خلقت لأكون متمرّدًا..".

السماء صافية إلا من غيمات صغيرة متناثرة تتخللها، الكل يسير في طريقه بسرعة، البشر، السيارات والدرجات النارية، بكين لا تعرف الهدوء أبدًا، بعد حوالي ساعة ونصف من المكالمات توقفت سيارة أجرة أمام "مقهى الطلبة " المخاذي لروضة الأطفال، في مطلع الحي التجاري. وبعد لحظات خرج شابٌ طويل القامة عريض الكتفين، لا يشبه أبناء بكين فملاحمه كانت مختلفة، لو رأيته لقلت أنه من أم غير صينية أو شيءٍ من هذا القبيل، مظهره يوحي بأنه من الشخصيات المتمرّدة التي لا ترضخ للأوامر، ويبدو من ملابسه انه من الذين يحبون أن يكون لهم حضور حيث كانوا ، كان كل ما يرتديه متناسق بنطال أسود و قميص أبيض ناصع، ولم ينس قبعته السوداء التي يرتديها في كل مكان، فبالرغم من أنه متمرّد إلا أنه ليس فوضوي الطبع. لم يكد يستقر تمامًا على الأرض حتى داهمه شابٌ آخر، متخلفٌ عنه تمامًا؛ فملاحمه كانت صينية بجثة، وفيها شيءٌ من الكد كأنه كان قادمٌ من الريف، وتصطبغ شخصيته بالطيبة وسلامة الفطرة، كان يرتدي بدلة رياضية صفراء، كما أنه لم يكن يبدو من ميسوري الحال، وبالرغم من اختلافهما إلا أن العلاقة بينهما كانت متينة جدًا، كانا صديقين مقربين من

بعضهما، رغم شجارهما الدائم، فنظرتهما عن الحياة كانت مختلفة تمام الاختلاف، أما مشاعرهما الطيبة تجاه بعضهما كانت عقدة المنتصف التي تجمع بين النقيضين.

كان جيو يرقب صديقه وهو يخرج من السيارة، لم ينتظره ليدخل، خرج من المقهى باتجاهه مسرعاً، ثم كالأسد قفز عليه ليفترسه:

- " إذا ساعة كاملة حتى تجيب على الهاتف أولاً.. ثم ساعة ونصف أخرى حتى تتفضل علينا بالقدوم.. إن كنا سنسير على موالك هذا.. فكلية الصحافة.. لن تفتقدنا أبداً.. " .

- " جيو.. أيها الصديق العزيز لا تعقد الأمور سنتجاوز مشروع التخرج هذا.. لا تقلق هكذا كالأطفال.. اثبت يا رجل أنا معك.. يا عزيزي سنجد سور الصين.. أقصد مشروعاً عظيماً.. " بصوت مملوء بالاسترحام وفيه شيء من الكسل أجاب شيان وتلعثم بضحكاته، شاركه الآخر الضحك:

- " آآآخ منك.. أيها الوغد.. كيف تستطيع في كل مرة أن تخرج نفسك من بين يدي كما تُخرج الشعرة من العجين؟؟ دعنا لا نضع الوقت أكثر.. لنعمل قليلاً قبل موعد الغداء.. " .

التفتا لبعضهما بحزم، حتى شيان حاول أن يتظاهر بالاكتراث هذه المرة، ثم دخلا المقهى كأنهما مديرا أعمال، اختارا حيزهما المعتاد بعيداً عن وجوه المارة، طاولة صغيرة بكرسيين تقع خلف جدار صغير في الطرف الأيمن من المقهى، لا يوجد طاولات بجانب هذه الطاولة، ليس بعدها سوى ممر صغير ضيق يتجه إلى اليسار يؤدي إلى مكتبة متوسطة الحجم، لكن رفوفها متروسة جداً بالكتب من مختلف الأحجام، كانت تبدو كغرف العلماء، رائحة مزوجة بين الغبار والورق، الكثير من الطلبة يأتون لهذا المقهى ويطلبون هذه الكتب كي تساعدهم في فروضهم وأبحاثهم، جلس جيو وشيان على الطاولة أخرج جيو أوراقاً صغيرة وقلمين، احتفظ بواحد وأعطى لشيان الآخر. شرعا بالتفكير من أين سيبدأ البحث؟ وكيف؟ وأي نوع من

القصص سيختاران؟ جالا بفكرهما هنا وهناك، حاولا أن يجدا طرف الحبل لكن لا شيء يدعو للاهتمام، لا توجد قصة ما تثير الحماسة، تحول وجهيهما اللذين كانا جادين قبل نصف ساعة إلى وجهين يائسين، حتى أن استقامة ظهريهما أخذت تنحني للأمام شيئاً فشيئاً، أحدهما يضع يده أسفل ذقنه والآخر يضع رأسه على ذراعه اليسرى ويرسم دوائر على ورقة بجانبه بيده الأخرى، شفق عليهما صاحب المقهى، وقد كان عجوزاً تكسوه الحكمة، قدم لهما كأسين من شاي الزيزفون، حركته كانت بطيئة بعض الشيء، جر أحد الكراسي المرسومة حول طاولة في الناحية الأخرى من طاولتهما، وضع كرسيه أمام الشاين وجلس بهدوء. كم يبدو هذا العجوز وقوراً!! بدت ملامح الاستغراب على وجهه لم يبادر بالسؤال اكتفى بتلك النظرات المتفحصة في أعين الشاين اليائسة، بعض الناس نظراتهم أعمق من أن تكون سطحية، بعض النظرات تخترق عظام الجمجمة تجول بين الأفكار والهواجس. بعد أن توصل العجوز لهما قال:

- " النجاح لا يأتِ بالجلوس على الطاولات.. ومحاولة تجميع الأفكار عبثاً.. النجاح بالبحث الدؤوب.. والعمل الجاد.. أن تعطيه كل وقتك.. وليس سويغات تقضيها على طاولات المقاهي.. النجاح قرار متراكم من معاشة للمشقة.. الأرواح الملتهبة وحدها من تصل.. " .

شعر الشابان أن كلمات العجوز كقطرات من الماء البارد قد رُشت فوق وجهيهما لتوقظهما من سبات الكسل، جيو بادر بشكر العجوز على نصيحته؛ فهو يؤمن تمام الإيمان أن الوقت الذي يقدمه لصنع نجاحه لا يكفي، أما شيان بدى وكأنه يبحث عن ذاته بعمق، حتى قطع هذا التفكير العميق جيو واقترح عليه أن ينظرا في الكتب الموجودة في المكتبة التي بآخِر الممر أمامهما عليهما يجدا ضالتهما، أوماً برأسه الآخر و أخذاً ببحثان السعي نحو المكتبة. دخلا إليها وبدءا بالقراءة من هذا الكتاب ومن ذاك، ركزا على الكتب الموجودة في رف المختص بمجال الإعلام والصحافة، بحثا إلى أن أُنهكهما التعب. بدأ شيان بالتأفف:

- " لقد تعبت يا هذا، أنا أتضور جوعاً.. حتى أني لم أتناول وجبة الفطور بشكل جيد.. دعنا نذهب إلى المطعم الموجود في الشارع المقابل لديهم أطباق لذيذة جداً..".

لم يعارض جيو هذه المرة فهو أيضاً قد أنهكه التعب، وبدت عليه علامات الجوع، خرجا مسرعين، أثناء ذلك وهما يقفان على الباب يهمان بالخروج، استوقفهما صوت العجوز ثانية الذي كان يجلس خلف طاولة في أول المقهى يحمل كتاباً قديماً في يده، أخذ يلوح بنظارته مشيراً إليهما:

- " نسيت أن أخبركما أن المعرفة لا تقتصر على الكتب.. " ثم وضع نظارته على أنفه وتابع قراءته. هز الشابان رأسيهما، ابتسما، ايديهما تتحسس بطنيهما، واسرعا الخطى خروجاً. كانا تماماً كأطفال الروضة الذين خرجوا من صفوفهم مسرعين عند سماع صوت الجرس يعلن نهاية الدوام، إلا أن الأطفال كانت تتلقفهم أحضان أمهاتهم، أما جيو وشيان كانا يركضان إلى أحضان الطعام، وهما يسيران أمام الروضة حتى يصلوا إلى مبتغاهما. شرد شيان قليلاً وأبطأ في مشيه، انسلت منه تهيدة عميقة، و بنبرة مليئة بالألم خاطب صديقه دون أن يلتفت إليه:

- " أتعلم يا جيو أنا أحسد هؤلاء الأطفال.. فأنا لا أتذكر قط أن لي أمًا قد انتظرتني على باب الروضة.. أو لعبت معي أو ما شابه.. لا يوجد في ذاكرتي ذكرى واحدة لبيت أو عائلة ترتقب عودتي.. ".

ثم انقطع صوته، وصمتا طويلاً. لم يقاطعه جيو فقد كان يعلم الألم الذي يقطن في صدر صديقه الذي كابد طويلاً حتى يصبح شاباً. فضل السكوت على الكلام حتى لا تظهر ندباً أكثر على جدران قلب صديقه، ثم ذهبا ملء بطنيهما، أما الأرواح فلا يعلمان ما الذي سيملؤها.

الأفواه بدأت بالتثاؤب، أصوات الأطفال لم تعد تسمع، الأمهات ينادين الصبية للدخول، بدأ الظلام يحتاج المدينة حتى استحكم عليها. أنوار المنازل بدأت تنطفئ بالتوالي، وفي أحد بيوتات المدينة كانت السيدة فاطمة تجلس متربعة تحت نافذة غرفتها بإسداها الأحمر الذي يغطي كافة جسدها فلا يكشف إلا عن وجهها الذي خط عليه الزمن خطوط الخبرة، وكفيها اللذان أخذنا نصيباً لا بأس به من التجاعيد فجعلتها تبدو أكبر من سنّها. كانت تنظر إلى القمر في كبد السماء وتتأمله، ترتل بعض الأدعية، تكرر السور القصيرة التي تستطيع لفظها باللغة العربية التي لا تفقه منها شيئاً، كانت تبتهل و تشكو همها لربها بملامح في غاية الخشوع. انسكبت دموع رقراقة من عينيها، لم تتحمل سرب الذكريات التي زارتها، فلا شيء أقسى من أطيايف الذكرى حين تغزو فؤاد مكلوم، الأشياء الجميلة التي يعيشها المرء حين تهجره تبقى أشواك في ذاكرته، تمزق خلاياه، تؤرقه، وتقلق مضجعه. الوحدة قاتلة، الوحدة عدو السعادة الأول، وهي من بخرت سعادة السيدة فاطمة كقطرة عذبة في صحراء قاحلة، فالسيدة وحيدة تماماً منذ زمن إلا من أمنيته اليتيمة، تغرق بها في أحلام يقظتها، وتعموم بين رجاءاتها، وهي تطوف بين الحجيج ملبية نداء ربها:

" لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إِنَّ الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك" يا اااا ما أجمله من شعور !!، وكأنه ماء بارد ينسكب على نار قلبها، فلم يبق لها من الدنيا شيء تريده إلا أن يمن الله عليها بأن يحقق لها هذا الحلم، السيدة فاطمة تجرعت حرقه فراق الزوج والولد، الفقر والحرمان، الاضطهاد، والمعاناة، تعبت من الحياة فلم تتمسك إلا بصورة الكعبة المشرفة التي تزورها كل ليلة، وتخطط للذهاب إليها ألف خطة، وتحاول مراراً وتكراراً؛ لكن كل محاولاتها تبوء بالفشل، فكيف لأحدهم أن يذهب إلى بيت الله الحرام

والشيوعيون لا يدعون المسلمين يقومون بأبسط المناسك الإسلامية! وبينما هي تتأرجح بين أفكارها ذهابًا وإيابًا؛ إذ ببأها يطرق بطرقات خفيفة. استيقظت من أحلام يقظتها، وكفكت بكمها ما بقي من آثار دموعها، ثنت سجادتها، وحثت الخطى باتجاه الباب، كان قلبها يدق بسرعة، كعادتها حين تسمع صوت الباب مساءً؛ فهي لم تتخلص بعد من آثار صدماتها التي لطالما كانت تأتي إليها متخفية في رداء الليل ترف إليها أخبارًا مؤلمة، وتأخذ في كل مرة منها حبيبًا حتى فرغت الدار عدى منها، فهذا الباب لم يأت لها إلا بالفواجع.

قالت بصوت خافت ويدها على قلبها:

- " من هناك؟؟؟ .. "
- " افتحي الباب يا خالة.. " صدر صوت ناعم من خلف الباب.

شعرت كأن شيئًا ثقيلاً أنزاح عن صدرها؛ فهذا الصوت تعرفه جيدًا، إنها مليكة ابنة أختها. لم تنقطع عن زيارتها منذ أن كانت صغيرة، تأتي دائمًا لترى إذا ما كانت السيدة فاطمة بحاجة إلى شيء ما. فهي تشتم منها رائحة أمها، وهي التي ما عرفت معنى الأم إلا من خالتها السيدة فاطمة، فاليتم كان مصيرها وقدرها منذ سنواتها الأولى في هذه الحياة.

دخلت فتاة مبتسمة تسدل على رأسها حجابًا ورديًا عليه بعض الورود المرسومة باللون الأحمر، تحمل في يدها حقيبة مليئة بالأوراق. ملامح جميلة مرهقة تعلو وجهها، وابتسامة صادقة ترسم على ثغرها. عندما التقت عينيها بعيني السيدة فاطمة الدامعتان اختفت ابتسامتها وتجمعت ملامحها، قد بدى لها تغيرًا في وجه خالتها.

- " أم أنكِ عدتي للبكاء كعادتكِ؟؟؟ " سألتها بقلق.

صمتت الأخرى لوهلة في حزن عميق، ثم قالت:

- " لم أعد أحتمل يا ابنتي، فالأيام تزداد سوادًا في عيني.. لم يبق لدي شيء.. لا زوج.. ولا ولد.. ونفسي تتوق إلى بيت الله الحرام.. وكل طلباتي التي قدمتها من ثماني عشرة سنة للحصول على جواز سفر باءت بالفشل، وحتى إن حصلت عليه فلن أستطيع الذهاب.. فكما تعلمين السلطات الصينية تمنع المسلمين من أداء فريضة الحج لمن هم دون الستين عامًا.. فكيف لي أن أجد السعادة بربك يا ابنتي؟ كيف؟.. "

ثم انقطعت أنفاسها وأجهشت بالبكاء. احتضنتها مليكة وهي الأخرى تسلل الدمع إلى مقلتيها رغم محاولتها العائنة بأن تكون قوية أمام خالتها لتسندها وتقوي من جأشها. لكن في بلد كهذا هيهات. هنا يبكي الحجر فضلاً عن البشر. أما مليكة فلم تكن فتاة عادية كانت أقوى من أن تقف عاجزة مستسلمة أمام الاستبداد الشيوعي، سبحت بفكرها للحظات، والسيدة فاطمة مازالت متشبثة بما كأنها تعوض ما بقي من أمومتها فيها، ثوان حتى عادت من رحلة شرودها القصيرة وبدت ملامح الجدبة على وجهها الفتان. كفكت دموع خالتها، طابعة على جبينها قبلة صغيرة:

- "مع السلامة يا خالة.. سآتي للاطمئنان عليك في الغد.. لدي بعض الأمور لأنجزها الآن ثم سأعود للبيت.. إذا احتجت لأمرٍ ما فلا تترددي بالاتصال علي.. " والتفتت مغادرة.

تبسمت السيدة وأردفت قائلة:

- " رضي الله عنك يا ابنتي أنت لم تدعيني أحتاج لشيء حتى أخبرك به.. "

وافترقتا.. المرأة لتخلد إلى النوم أو كما زعمت.. فالنوم والهجوم لا يجتمعان.. لكن الرجاء لا ينقطع بالله. وانصرفت الأخرى إلى وجهتها التي لم تُصرح عنها خالتها.

خرجت مليكة من الباب وهي تسير بخطى منتظمة، بدت في بادئ الأمر وكأنها تسير باتجاه بيت أخيها الذي تسكن عنده؛ فهو من رباها منذ كانت صغيرة، وهو عندها بمنزلة الأب والمربي، يرعى شؤونها، ولا يبخل عليها بخير قط، وهو من زرع فيها حب العلم، والسعي الدؤوب، وكبرها حتى أصبحت باحثة في الطب الأيغوري، وتتطلع للتقدم في هذا العلم.

سارت مليكة في طريق العودة لكن في المنتصف توقفت. كان الظلام دامساً، كل الذين يسرون في الطريق يسرعون إلى بيوتهم، الإرهاق يكسوا أجسادهم العاملة طوال النهار. أخذت تنظر مليكة في الأرجاء بعناية، التفتت يمينا ويسارا دون أن تثير الانتباه، ثم انسلت بهدوء إلى زقاق صغير على الجهة اليمنى منها، واختفت بين البيوت والأزقة، توارت عن الأنظار و تنقلت من زقاق إلى آخر، حتى وصلت إلى بيت صغير، كانت نوافذه ضيقة ومغلقة تغطيها من الداخل ستائر غليظة، فلا يخرج منها سوى ضوء خافت كأنه ضوء فانوس أو ما شابه، رفعت أناملها وطرقت الباب بخفة، ثلاث طرقات مشككة نغمة موسيقية، طرقتين متتابعتين ثم طريقة أخرى بعد. تنحت جانباً ولم تعاود الطرق، ماهي إلا لحظات حتى فتح الباب، ولكن ما من أحد يخرج منه أو يظهر، لم تدخل مباشرة انتظرت قليلاً ثم دخلت بخفة، كان البيت مظلماً وأبواب الغرف التي فيه كلها مؤصدة، تتسرب منها أصوات مهموسة كأنها وزيز نحل. تعدت كل الغرف حتى وصلت إلى الأخيرة كان الباب شبة مفتوحاً فيه فُرجة صغيرة يخرج ضوء خافت من خلالها، فلا تكتمل رؤية ما بداخل الحجرة، جمعت أناملها في قبضة، وطرقت بشكل خفيف:

- "هل يمكنني الدخول.. يا أبا محمد؟؟..".

رد عليها الآخر بصوت مهيب:

- "تفضلي يا ابنتي..".

سرت في جسمها رعشة تصيبها في كل مرة تأتي فيها إلى هذا المكان، وكأن هذا المكان وهذا الغرفة بالذات تهيج مشاعرها، وتحرك كل ما سكن بقلبها، دخلت على استحياء،

ثم رفعت نظرها فبدى لها رجل كبير في السن أقرب إلى الشيب منه إلى الشباب ، لحيته كانت بيضاء عدا من بعض الشعرات المتشبثات بالسواد، كان ضخم الجثة، مهيب الهيئة، يجلس على الأرض، متربعا على رجله، يلبس ثوبا أبيضاً، وعمامة بيضاء، كأنه ملك نزل من السماء. رغم المهابة التي يستشعرها من ينظر إليه، إلا أنك إذا تأملت وجهه رأيت الرحمة مكتوبة بين عينيه، وسكينة تسري في ملامح وجهه. وعن يمينه وشماله رجلين لا يختلفان عنه في الهيئة إلا أنهما يبدوان أصغر سناً. أشار إليها كبيرهم بالجلوس، تقدمت خطوتين حتى وصلت إلى منتصف الغرفة، ثم جلست، بادرت بالكلام قبل أن يبادرها بالسؤال. قالت بصوت كله رجاء:

- " يا أبا محمد، إن لي عندك اليوم طلباً استحلفك بالله أن لا تردّه.. وانظر إليه بعين الاعتبار"، جمع تركيزه كله في كلامها، ثم أكملت:
- " إن خالتي.. فاطمة.. أم عبدالله.. قد رغبت عن الدنيا وما فيها.. ولم يبق لها بها حاجة.. وإن لها طلباً أوصدت كل الأبواب أمامه.. وهو أن تذهب إلى بيت الله الحرام.. وهي كما تعلم تتابع أمور جواز السفر من سنين طويلة للتمكن من الذهاب.. ولا يخف عليك.. يا شيخنا.. ما نحن فيه من قلة حيلة أمام هؤلاء الديمويين المستبدين.. فأذن لي بالذهاب معها.. وقد.."

قاطعها أبو محمد بنبرة شديدة دون أن يفسح لها مجالاً للانتهاء:

- "وأنك تريد أن تذهبي عبر التهريب عن طريق باكستان؟؟..".
- أومأت برأسها.. أي نعم.. وقد ملئت تعابير وجهها بالخوف والرجاء. جمع الآخر كفيه محاولاً التخفيف من حدة غضبه و أحنى رأسه، ثم قال:
- " يا مليكة نحن نقدر تعاطفك مع خالتك.. لكن السفر عبر باكستان.. شيء لا تطيقه السيدة فاطمة.. ولا حتى أنت.. وأنت تعرفين أنك لن تستطيعي العودة إلى تركستان أبداً بعد ذلك وتركستان بحاجة لتواجد أمثالك فيها..".

لم تكمل الفتاة الاستماع إلى ما يريد قوله أبو محمد خرت على الأرض باكية، وخرت معها آمالها، فقد سئمت المسكينة من رؤية خالتها تتقطع من الألم أمام عينيها كل يوم، فهذا أقل ما تواسيها به. بكت دون وعي تحسرت على وضعها، وحال بلادها. بكت بدلاً عن كل مظلوم من أهلها. لم يستطع كل من في الغرفة التحمل، انسلت الدموع الحارة من أعينهم بصمت فكل ما عاشته مليكة، وعاشته السيدة فاطمة يعيشه كل من يقطن في هذه الأرض المنسية. لم تنتظر رداً ولا مواساة خرجت راکضة، تاركة أبا محمد وصاحبيه في حزنهم، وفضلت أن تعيش حزنها بمفردها وقد شعرت بأن الأمل الصغير الذي يسكن قلبها قد انطفأ، تماماً كما هي منطفئة هذه المدينة الجميلة السلبية (كاشغر).

*

*

*

المطر يهطل بغزارة، البرق يلعب كأنه سيوف مسلولة تلوح في السماء، وصوت الرعد قد جلدل في الأرجاء، كأن الجبال تتقاذف بصدى الرعود مما أضاف للمكان هيبه في نفوس الذي يمرون به، بالرغم من ذلك فهذه السلسلة الجبلية مفروشة باللون الأخضر الفتان، نحن الآن في الجبل الكبير، من الجنوب تستقبلك باكستان، ومن الشمال تظهر أرض أشبه ما تكون بعروس في ليلة عرسها، لكن ثوبها الأبيض يختلط بلون الدماء؛ فما أكثر الذئاب التي تسرح وتمرح على أرض تركستان الشرقية تعبت بجمالها الفتان كيف ما شاءت دون رقيب أو حسيب. والجبل الكبير نقطة المنتصف، هنا الأمان الشاق، هنا الحرية وكد الحياة، هنا أسر الجبل تعيش مشقة العيش لكنها لا تخضع للأعداء، هنا مزيج بين سرور العبادة وألم الغربة، هنا الذين فضلوا رعاية الأغنام ونسج الصوف، وديغ الجلود، على الركوع للملحد الذي لا يعرف الله، هنا رجال الله الذين يعدون كل عدة للتخفيف عن إخوانهم في داخل تركستان.

هاتف هاتف من بعيد:

— "أين القائد مسلم باتور؟؟؟" ..

كنتُ حينها قد فرغتُ من نافلة صلاة المغرب بعد أن أمنا الشيخ يحيى خان الملقب بشيخ الجبل. شيخ كهل قضى عمره محارباً شهماً حتى أخذ منه العجز مأخذاً، لكن روحه شابة يانعة وهو الأب الروحي، والمربي لكل الذين اتخذوا من الجبل ملجأ لدينهم وعقيدتهم خوفاً من أن يسممها بنو الأصفر ذو الرايات الحمراء بالقوة. كان بجانب ساعدي الأيمن سليمان تركستاني، نظر إليّ ثم نهض قبل أن أمره لينظر ما الأمر خرج من المسجد الذي كان بيتاً لعائلة الشيخ يحيى خان ثم جعل منه مسجداً واتخذ هو و أسرته منزلاً مجاوراً له، كان الرجال مجتمعين عند عتبة المسجد.

- " ماذا هناك يا أخوة؟؟ " سأل سليمان.
- " إنه منصور كوتشاري يا سيدي.. جاء ومعه شاب لا نعرفه.. يطلب القائد مسلم.. يبدو أن هنالك أمر هام.. " بادر أحد الشبان بالإجابة.
- سار منصور كوتشاري وشاب آخر صعوداً حتى وصلا إلى المسجد، كنت قد انتهيت من ورد الذكر عندما دخل الرجلان وفور رؤيتي لمنصور وثبت إليه معانفاً:
- " آآآآه .. يا صديق المواقف الصعبة.. يا أخ الجهاد والنضال.. لقد اشتقنا إليك كثيراً.. تأخرت علينا هذه المرة.. ".
- " إنه الواجب يا مسلم.. وإلا فأنت تعلم أننا لا نطبق الحياه بعيداً عن جبلنا الكبير.. ".

تنحيت جانباً من جسده، لكن يدي ضلت ممسكة بيده وربت بالأخرى على كتفه:

- " تلبية الواجب .. واجبة يا أخي.. ".
- " هو ذاك.. ".
- " كيف سارت معك الأمور في كاشغر؟؟ ".

- " يا صديقي .. كل ما في تركستان حزين: المدن .. القرى .. البيوت .. الأزقة ..
الأسواق .. البشر و كل شيء..".
- " سمعنا بأن مبانيتها قد تناولت .. وفتحت المعاهد .. والجامعات ..".
- " إنه السم المدسوس في العسل..".
- " شيء من الأفيون إذًا..".
- " بالضبط..".

تبسمت في أسي و اعتصرت كف صديقي الغائب، كأني أشد أزره، وأنا في أشد الحاجة إلى أن يشد أزري هو، نظرت إليه عليّ أمسح شوق السنين في عينيه ، لكنه هو من أذاب جليد الحنين في قلبي، كيف لا؟؟ وهو لي الصديق الصدوق. تنبّهت للشباب الذي أمامه، وحررت يدي بسرعة من كف منصور مبادراً بالمصافحة واعتذرت في خجل:

- " المَعذرة يا أخي .. شغلني لقاء منصور عنك .. فقد مضى وقت طويل على لقائه..".

قال بلباقة:

- " لا داعي للاعتذار .. فمثلك لا يعتذر لمثلي أيها القائد مسلم .. فقد بلغ صيتك عندنا كل أذن .. ونحن فخورون بك جدًّا .. لم أكلّ من سماع القصص التي حكها لي الأخ منصور عنك طوال السفر "

- " استغفر الله .. نحن سواسية أيها الشاب الطيب .. تفضلاً بالدخول سيلقى الشيخ يحيى خان على مسامع أبناء الجبل بعض المواعظ بعد صلاة العشاء .. حتى ترق قلوبهم .. وتشحذ همهم .. ارتاحا من عناء السفر قليلاً .. ثم انضمّا إلينا .. "

أذن المؤذن " الله أكبر .. الله أكبر " كأنه يخيط الجروح، ويداوي أمراض النفوس، كأنه الماء البارد يراق على صحراء الحياة فتزهر بها الأرواح، " الله أكبر .. الله أكبر "

راحة للمتعبين، امتلاء للأجواف الفارغة، "... لا إله إلا الله.. " دستور حياة، وقانون دولة، "... لا إله إلا الله .. أمان للخائفين، ووعد للعارفين، "... أشهد أن محمدًا رسول الله.. " القدوة والأسوة، " أشهد أن محمدًا رسول الله.. " الرحمة والعظمة، "... حي على الصلاة.. " الشريعة المنظمة، والدقة المتناهية، "... حي على الفلاح.. " الشمول والتمام، "... الله أكبر.. الله أكبر.. " تثبيت للقلوب والأقدام، "... لا إله إلا الله.. " السعادة الأبدية اللامتناهية.

تسارع الجميع نحو المسجد صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساء، فالجميع هنا لا يفوت كلمات شيخ الجبل، الكل هنا همّ على مواعيد الغداء الروحي. أقيمت الصلاة، المنظر مهيب، صفوف منظمة، الرجال ثم الصبية ثم النساء. حتى أنك تتسأل أهؤلاء جاؤوا من عصر الصحابة؟؟ . ثم قُضيت الصلاة، وتنفل الناس ثم عادوا إلى صفوفهم يجلسون كأن على رؤوسهم الطير. اعتلى الشيخ يحيى خان كرسيًا، خشبيًا، عتيقًا، اخذ نفسًا عميقًا وتلفت بين أعين الناس كأنه يتفقدهم، ويتعهد همهم، ثم صرح قائلاً:

" طوبى لنا وألف طوبى.. كيف لا؟؟..وقد أعطانا رسولنا الكريم قبل آلاف السنين والأعوام مفاتيح الفرج، فقال عليه الصلاة والسلام: ((إن من ورائكم أياما، الصبر.. الصبر فيهن كقبضٍ على الجمر، للعامل فيها أجر خمسين قالوا: يا رسول الله أجر خمسين منهم أو خمسين منا؟؟. قال: خمسين منكم))، فالصبر يا إخوة الدين هو المفتاح الأول.. ثم التمسك بالمنهاج الإلهي والقبض عليه مهما حاول أعداء الله أن يفلتوه من أيدينا.. نحن المسلمون يا أخوة.. نحن الذين سلمنا لله أمورنا.. وارتضينا كتابه دستوراً لنا.. نحن خلفاء الله في الأرض.. هذه الأرض التي كانت لنا اختباراً قاسياً.. وكنا فيها عابري سبيل.. الوطن هناك يا إخواني.. " ، وأشار بيده إلى الأعلى وصمت برهة وعاود قائلاً: " السماء.. اللجنة من حيث أخرج أبويننا في القدم.. عائدون إلى ذلك المكان الجميل.. هناك أيها الأحبة.. لا الصينيون يبطشون.. ولا الروس

يتعاونون.. ولا إخوة يتخاذلون.. هناك الأمان والأمن.. السكينة والسعادة.. هناك الهناء الأزلي.. هناك الله.. الله الذي يرى حالنا الآن نعتصم في الجبال خوفاً على إسلامنا.. هذه هي النفسية التي يجب أن نعيش بها.. حاربوا اليأس في قلوبكم.. فالله مولاكم نعم المولى ونعم النصير..".

أكمل الشيخ موعظته، تأثر الناس وخرجوا من المسجد بغير ما دخلوا عليه. تستطيع أن تراهم ممتلئين أملاً، عزمًا، وإيمانًا. ماهي إلا فترة قصير حيث صفى المسجد إلا مني ومن الشيخ يحيى خان، وعن يميني منصور كوتشاري وعن يمينه الشاب الذي أتى به، وعن شمالي سليمان تركستاني. التفتُ شمالًا وهمستُ في أذن سليمان:

- " جهز لنا شيئاً نقدمه للضيف..".

انصرف من ساعته، واخذت الشيخ والرجلين إلى بيت الشباب. البيت الذي أقيم فيه مع الشباب الذين لا يملكون عائلات في الجبل، دخلنا لغرفة خالية نسبيًا من الأثاث، وسادات متفرقة على سجادتين من الصوف رائحة المسك تفوح في الغرفة، ورفين فوق بعضهما معلقين على الجدار الأيمن من الغرفة عليهما بعض الكتب. في الجهة اليسرى كوة محفورة في الجدار فيها سجادات للصلاة مرصوفة فوق بعضها. جلسنا في شبه دائرة، تكلم منصور كوتشاري أولاً:

- "لأعرفكم.. هذا عبدالحق خوجة.. شاب مناضل تتطلع نفسه للحرية والجهاد.. ليس كغيره من الشباب الذين رضوا بالأمر الواقع وخنعوا له.. كان عيني في كاشغر والمدن المجاورة لوقت طويل.. كان عون لنا بعد الله في إنجاز الكثير من المهمات هناك..".

في الحقيقة أعجبت كثيرًا بعبدالحق، تذكرت تلك الآية في القرآن التي تبين كيف أن المؤمنين تظهر سيماهم في وجوههم، كم نفتقد إلى الشباب المتطلع للغد الواعد. كم تصلني من أخبار كأنها مسامير تنهش في لحمي عن كاشغر وباقي المدن التركستانية القابعة تحت سطوة

الاحتلال، ما أقبح الاحتلال الذي يذيب معتقداتك ويلوكها في فمه ثم يمجها في مهب الريح!! يحاول طمس معالم الحياة فيك، يريدك أن تعيش كحيوان تلهث خلف الملذات.. تأكل، تشرب، تضاجع النساء، ثم ماذا؟ لا شيء.. تموت.. تذهب كأنك لم تأت أصلاً. ما هذا العبث؟ سبحت في أفكار كثيرة حتى قاطعتني روائح الطعام، دخل سليمان يا لهذا الطباخ الماهر!! وضع الأطباق في المنتصف (المنتو) خبز محشو باللحم، و(اللغن) معكرونة مصنوعة باليد، ومرق فيه لحم الضأن، إنها أطباق بخارية تذكرنا بأصولنا وأرضنا التي يحاولون طمسها عبثاً. وأنا أستم رائحة أمني بين هذه الأطعمة أمني التي ذبحت كالنعاج أمام عيني. لا أستطيع أن أوقف دموعي كلما ذكرتها، ولا أن أحم نيران قلبي، " لبيك أمني.. لبيك تركستان..". قطعْتُ حبل أفكار عنة وكأني أجز نفسي جرّاً للواقع فلا أريد أن أفسد مجلس الضيافة. أخفيت حزني ولا أعلم هل انفلت مني خفية فبدى لمن حولي أم لا؟ رحبت بعبداً الحق مجدداً وأشرت له ليأكل، أخذت قطعة منتو وقدمتها لمنصور وقلت مداعباً:

- " تفضل كل من أكلتِكَ المفضلة يا منصور.. أم أنك أكلت منها في كاشغر حد الشبع؟؟.. يخيّل لي أنّ لا أحد يستطيع طهوها كسليمان..". ألتفت لسليمان الشاب الخلق الحيي، توردت وجنتاه خجلاً، لكم أحب هذا الشاب!

أجاب منصور بجديته المعتادة، وهو ينظر إليّ:

- " نعم أكلت منها في كاشغر وغيرها من مدن تركستان طوال طريق سفري.. لتعلم يا مسلم أن العنصرية الصينية لم تستطع أن تقتل عاداتنا كلها؛ لكن الأمور هناك تسير بلا روح.. قل أنك تسير في حياتك مرعماً على الحياة لا محباً لها.. أشبه بالآلة.. ستكون سعيداً جداً إن أدت عبادة اليوم خلصة ولم تصب بأذى.. إن تلوت آيات قليلة ولم تترقبك أعين الجواسيس ليشوا بك ويكسبون المال..".

قاطعه الشيخ يحيى خان قائلاً:

- " لا تكن عجولاً يا بني إنما النصر صبر ساعة.. هو أتٍ لا محالة بإذن الله..".

غمغم الجميع: " إن شاء الله..".

فَرَعَتْ أواني الطعام، وتناقلت الأجساد، ذلك يشرب الماء يذهب حر التوابل، وذلك يسمح فمه من أثر الطعام. اتكى الرجال على الحائط، بعد حمد الله على النعمة، والشكر لنا على الاستضافة، وعبارات الترحيب. ثم انضمت إليهم بعد أن انتهت من توضيب المكان. صوب عبد الحق خوجة نظره إليّ وقال:

- " جئت إليك برسالة يا سيدي ..".

- " من مَن؟؟.."

- " من أبي محمد.. يريد منكم أن تُفعلوا مجموعة نبض الإسلام بشكل أكبر.. فالمساجد حركتها مشلولة بشكل شبه تام.. ونحن بحاجة للمزيد من البيوت التي نجعلها مساجد خفية من السلطات الصينية.. فهم يسمحون بالصلاة لمن هم فوق السبعين فقط.. حتى طبعات المصاحف شبه معدومة.. وكتب العلم.. المدين خاوية يا سيدي.. ونحن نعول عليكم بالكثير..".

خرجت من أعماقي تنهيدة بدون وعي. همهمت في نفسي تفضل يا مسلم المزيد من السباخ التي تُغرز في لحمك، فكرت ملياً ونظرت إلى شبيخي راجياً:

- " ما العمل؟ ارشدني لشيء.. الوضع لا يطاق.. رجال المجموعة أعدادهم قلّت بشكل مخيف.. فالواحد منهم إما كُشف أمره فهو متخفٍ في الشباب أو وقع تحت قبضة الأسر فجملده يشوى بالسياط.. ومنهم من لقي حتفه وترك الواجب على أعناقنا.. والله بت في حيرة من أمري يا شيخ الجبل..".

- " خذ ذلك المصحف الذي على الرف..".

نفضت من فوري لتناوله من مكانه. أشار بيده لأعطيه إياه، فناولته ثم قلب فيه بعض الورقات ورده إلي مجدداً:

- " اقرأ آخر آية في سورة العنكبوت...".
- قلبت نظري في الصفحة المفتوحة باحثاً عن الآية، وأخذت أقرأها بصمت، صاح بي:
- " بصوت مرتفع.. يا مسلم...".
- ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)).
- رفع سبابته نحوي معنفًا:

- " أتشك في وعد الله يا ولد؟؟؟...".
- " معاذ الله!!..." قلتها وقلبي يرتجف خوفاً.
- " إذا جاهد ليهديك.. الجهاد مأخوذ من بذل قصارى الجهد يا ولدي...".

اكملنا ليلتنا تلك بحوار عن أهمية أن تكون مؤمناً بما تقوم به، مؤمناً بالله الذي يدعمك من السماء، ويرى جدك في رفع الظلم. الله الذي حرم الظلم على نفسه يعينك على كل ظالم متى رأى منك الصدق في ذلك. ثم ذهب الجميع ليغط في نوم عميق الشيخ في منزله، ونحن في بيت الشباب. الجميع التصقت أعينهم بأجفانهم، وأنا تعلقت في السقف الذي فوقني.

*

*

*

شيان و جيو يسيران بعد غروب الشمس بغير هدى في شارع طويل. عليهما علامات الإرهاق والضجر، يبدوان تعين من كثرة البحث اللامعدي، صاح شيان بكل صوته:

- " لعناتي على مشروع التخرج هذا...".

- " إنك ترفض كل قصة.. لا يعجبك شيئاً.. يا عزيزي.. ماذا تريد قل لي؟؟؟.. "، زفر بغضب، ثم أردف:
- " إما أن تأتي بقصتك الأسطورية التي لن يأت أحد بمثلها وإما أن تقبل بقصصي الاعتيادية التي لا تصلح حتى أن تكون قصص ما قبل النوم للأطفال.. ".
- " لتعلم يا صديقي أنني لا أقبل أن يكتب اسمي على عمل مبتدئ.. أريد قصة مثيرة.. حبكة لا تخطر على بال.. شيء حقيقي لكنه أشبه بأسطورة.. ثم أنني... ".

قطع حديثه، وتأمل بعيداً، كأنه يدقق في شيء بعيد، يضع يديه اليمنى كمظلة فوق عينيه. يلتصق بالجدار بخفة ويسرق النظر في الشارع الفرعي. لم يكن مضيقاً بما يكفي، شاهد طيفاً يدخل إليه. عم الصمت، واستمر حتى حاول جيو الاستفسار، إلا أن شيان قاطع مداخلته بصوت مهموس أشبه بفحيح:

- " انتظر.. توقف جيو توقف.. ".
- بنفس النبرة قال جيو:
- " ماذا هناك؟؟؟.. ".
- " اششش... أصمت.. ".

ظل شيان محققاً في الشارع الضيق يركز بصره فيه ويتفحصه، و جيو يقلب نظره بين شيان والجهة التي يصوب نظره نحوها. ثم أطبق شيان فكيه بقوة وصك أسنانه بغضب، لم يتكلم بشيء بعدها ظل هائماً لبرهة، وعادوا السير مجدداً. ظل شيان يسيح في البعيد بين أمواج أفكاره، وجيو يسيح في حيرته من صديقه الغريب.

في صباح اليوم التالي شيان ذهب مبكراً إلى الجامعة. هناك لقاء دوري يقيمه أساتذة الجامعة مع الطلاب ليروا إذا ما كانوا بحاجة للمساعدة، أو أن هناك بعض الأسئلة. في الحقيقة لا يفوت الطلاب هذه الفرصة، يحضر الجميع، يحاولون جمع أكبر كمية من الذكريات مع

بعضهم، ربما تكون هذه اللقاءات الأخيرة. من يدري كيف ستطيش بهم أقدارهم؟ وعلى أي الشواطئ سترسى بهم السنون؟ شيان يمشي يبحث عن أحدهم، ويتفحص الأوجه، يلقي التحية كواجب ليس إلا؛ وذلك إذا ما التقت عينيه بأحد الزملاء، لكنه يقلب بصره هنا وهناك. يبحث عنها .. نعم كانت هي، هي من وجدها ليلة البارحة تدخل إلى ذلك المقهى، كان يبدو أنها تتخفى من أعين الناس، لباسها للمعطف الطويل مع أن الجو لم يكن باردًا إلى ذلك الحد، ذلك المقهى ليس مخصصًا للعريضة صحيح، لكن شيئًا ما في شيان قد ثار. أحس حينها أن قلبه لا ينبض بقوة فقط بل كان يقذف برأسه على أضلاع صدره، كأن شيئًا في داخله يتهشم. "ها هي أميرة الظل" قال في نفسه، ثم انتظر حتى تنفض الفتيات من حولها، كنَّ يتبادل القُبل والمصافحة والضحكات. اختفت الفتيات من حولها وكل واحدة منهنَّ ذهبت في حال سبيلها. وجد شيان الفرصة المناسبة وانقض على الفتاة ممسكًا كتفها بقوة، أدارها، وجهه الغاضب ملامحه المنكمشة كل ما كان فيه يوحي بأنه جاء ليقاتل. التفتت الفتاة بهلع، ثم استدارت بكامل جسمها، عينها العسليتان، شعرها البني المنساب على كتفيها كالفهوة المصبوبة، وجهها الصافي، وجنتيها المتوردتين كوردة برية، شفثيها كثمرة كرزة مفلوكة. كل هذا لم يشفع لها ثورته العنيفة ضدها:

- "أين كنتِ البارحة.. ليلك؟؟؟..".
- "في المنزل بالطبع.. أين سأكون برأيك؟؟؟..".
- "لا أدري لما تحبين حياة الغموض؟ لما تكذبين مرارًا؟ تنكرين ما تفعلين.. تتخفين كخفاشة في الظلام.. أنتِ تثيرين أعصابي جدًّا..".
- "لا تتصرف كأنك أحد أبواي شيان.. أنا أعمل ما أريد.. أيضًا كف عن ملاحقتي.. لا تحاول العبث معي أو الاقتراب مني.. العب مع أخريات..".

لم تعطه مجالًا للرد حتى. لفظت أنفاسها الغاضبة الممزوجة بكمية من التوتر التي لم تنجح ليلك بإخفائها، استدارت ومضت قدمًا راكضة. توقف في مكانه مجمدًا. صحيح هو لم يكن ليسمح لأحد بالتطاول عليه أن يرفع صوته، أو أن يصرخ. لطالما كان متعجرفًا لا يمكن

لكبريائه أن يُخدش لكنه يفقد هيئته أمامها. كثيراً ما يفكر لما هي تأخذ من اهتمامه؟ ما دخله هو أين تذهب؟ أين تعمل؟ ما يهمله من تفاصيل حياتها الغامضة؟ يفكر دائماً أن يصرف النظر عنها أن يجد فتيات أكثر مرحاً. (بكتين) تعجب بمن عجباً، لكن شيئاً ما.. سرّاً خفياً.. يجعلها أثيرة باهتمامه. ربما غموضها؟ أو ربما حزنها العميق الذي لا يريم عن وجهها؟ أو لأن كلاهما كانا يذهبان إلى المدرسة بدون مرافقة أحد؟ ربما ليس لها عائلة مثله؟ قد تكون عوملت بقسوة في صغرها؟ لطالما مرت السنوات لهما معاً؛ لكنها ظلت هي.. هي لم تتغير. قليلة الكلام، منطوية على نفسها، متفوقة. رءاها أول مرة في الصف الخامس الابتدائي كانت تختبئ خلف المدرسة ثم تبكي، أغلب الأيام كانت تفعل ذلك. كانت تتعامل مع باقي الطلاب كأعداء. عنيفة جداً في الرد عليهم لا تسمح لأحد بأن يبني بينه وبينها علاقة صداقة أو حتى زمالة تأخذ طابع المجاملة. شيان كان يحاول الاقتراب منها في بعض الأحيان ولم يفلح. لم يحاول فعل ذلك لأحد كما فعل معها، لم تقبل صداقته، لكن نظراتها لم تكن عدائيه تجاهه، تبدو كأسيرة جميلة تنتظر من ينقذها.. هذا كان انطباعه عنها. مع مرور الوقت بدأت ليلك تحسن الكلام والتعامل مع الآخرين قليلاً، لكن طبعها الحذر لم يتغير. يكاد لا يكون لها أي صديق أو هو كذلك بالفعل. اعتاد الجميع عليها بهذا الطبع صداقتها ليست أكثر من ابتسامة و إلقاء تحية.

تشير الساعة إلى الثامنة الآن، موعد اجتماع الطلبة مع أساتذتهم. سيتم مناقشة الخطوات الأولى في سير المشاريع. كيف شرعوا بها؟ هل يبلون حسناً؟ هل هناك أمر ما متصعب عليهم؟ كان الجميع يسرون أسراباً إلى القاعة، المدرجات بدأت تمتلئ. الجميع يتفاخر بما لديه وبما قد أنجزه. روفي المغرور وأصدقائه المقربين منه يتحدثون أن يكون أحد أفضل منهم. بدأ المشرف يستمع للطلبة الذين يستعرضون أعمالهم المنجزة من بداية العام الدراسي. لم يبق لهم إلا اللمسات الأخيرة. ينتهي أحدهم فيبدأ الآخر، حتى أستوقف المشرف منظر شيان الذي لا يحرك ساكناً، يجلس في ركن قريب من النافذة، عيناه تسبحان في الفضاء، فجاءه بصوت عالٍ:

- " يثيرني فضول جامع حول ما سيكون مشروعك .. شيان.. "

نفض غيوم الشرود من رأسه والتفت نحو مصدر الصوت:

- " عفواً لم أسمع.. ضيق عيناه وهو ينظر نحوه.
- " بما أنك لست قلقاً يبدو أن عملك كان دسماً. هلاً أبديت بعضاً مما توصلت إليه؟؟..".

صوته كان مستهتراً، لا يدري شيان لما لا يرتاح لهذا الأستاذ؟ ربما فضوله الزائد؟ أو لتحديه له؟ أو لأنه يتصيد أخطاءه؟ لنقل كلها معاً النتيجة واحدة. هذا ما قاله شيان في نفسه، ثم قال بصوت مسموع:

- " في الحقيقة لدي شيء لا يتخيله أحد لكني لا أريد أن لا تحضركم الحماسة في يوم المناقشة يا حضرة الأستاذ.. أفضل أن أكمله أولاً .. أعذرنى..". ثم أبتسم بلطف هو نفسه لا يعرف كيف أجاد تمثيل هذا المشهد.

في الممر وبينما شيان يمشي ويفكر فيما قاله، ويشكر الحظ الذي جعل الليلة الأولى ممطرة فتصيب جيو بنزلة برد. ذلك الأحق لا يجيد الكذب، كانا سينفضحان، الثنائي الفاشل الذي لم يعمل شيئاً حتى الآن والجميع على وشك الانتهاء. يا لهما من تعيسان! وبينما هو يحاول إيجاد حل للمشكلة العويصة ارتطم به شيئاً ما. استدار لينظر:

- " آآآوه آسف يا صديق.. لم أرك.."، بابتسامة خبيثة.
- " هذا واضح روفي.. أراه في عينيك طبعاً..".
- " خذ الأمور على منحنى إيجابياً يا صديق.. على العموم سمعت بأن مشروعك سيكون خرافياً .. آمل أنها ليست دعاية منك..".
- " ليس عليك القلق من أجلي.. أقلق من أجل نفسك..".
- " لا تكن واثقاً.. على كل أبناء العائلات العربية لا يتوجب عليهم القلق حول أمور كهذه.. بخلاف أبناء ال..".

صخرة صلبة سدّت فمه لم يكمل. لم يستطع حتى تصديق ما حدث. كان يلفظ الدم من ثغره، يمسح قطرات سالت على ذقنه وأسفل فمه، تلوّث كُم قميصه ببقع من الدم. كان يحاول استجماع بعض الأكسجين، واستجماع كبريائه الذي تناثر أمام حشود الطلبة في الرواق. الكل كان مندهلاً. لا أحد يجزم على التللف بسوء على روفي فضلاً عن ضربه. ظلت يد شيان بقبضتها في الهواء لفترة، حتى شيان نفسه لا يعرف كيف حدث هذا. كان استهتار روفي به قد أثار ثورته لا يقبل بأن يمس أحدهم جرحه، أن يشكك في أصالته، أن يذكره بهواجسه، أن يجعل منه ورقة مرمية على الرصيف دون شجرة، دون محضن. أنزل يده، سار حتى اختفى بين الطلاب.

عاد شيان إلى حيث يقطن، سكن للطلاب يتقاسمه مع زملائه من جامعات مختلفة في بكين، تنقل بين عدة مساكن بعد أن توفي والده. هنا يعيش جيو أيضاً عائلته في قرية نائية. سار شيان بصمت لم يتحدث مع أحد لاذ إلى غرفته أغلق كل شيء: الباب، النوافذ، الستائر، وعينيه، حتى تفكيره. لا يريد أن يفكر في شيء لا مشروع التخرج والكذبة التي أختلقها، ولا روفي الذي أدمى فمه ولا عواقب كل هذه الأمور. حتى ليلاك وإنكارها اختفى من عقله. نام بعمق لم يوقظه شيء إلا قرع ملح على باب غرفته هرع لفتحه وهو يلهث:

- " افتح يا شيان إن رأسي سينفجر.. " كان يربط عصابة على رأسه، المرض بدأ يظهر عليه بشدة أنفه محمرة، ومنتفخة قليلاً، وجهه ندي من العرق.
- " هل أيقظتني لتقول ذلك؟؟.. " بنفاذ صبر.
- " ألم تقلق علي يا صديقي العزيز؟؟.. " بشيء من الدعابة. ثم أردف " إني أمازحك.. أحقاً فعلتها؟؟.. ها؟ .. هل ضربت روفي يا أيها البطل الشجاع؟؟.. "

بدى جيو ليس سعيدًا بما حدث. كما بدى قلقًا من العاقبة. كان يضحك بخوف، يصرخ بألم، كل ما يجسده يؤلمه، يترنح كمثل، وعقله يحاول أن يتخيل منظر روفي وهو يلفظ دماؤه. شعر بنشوة الانتصار. ثم نفذ رأسه وصوب نظره نحو صديقه وقال بجديّة:

- " انصت إليّ جيدًا.. نحن لم نخلق لهذا.. لأن نقف أمام أبناء المسؤولين.. الأكابر .. نحن يكفيننا النجاح في الكلية والعيش بسلام.. إضافة لتطبيق القوانين.. أفهمت يا عزيزي؟؟..".

- " أهذا ما تراه أنت؟ .. أما أنا لا أقبل بأن يمس شخصي أحد.. كائنًا من كان.. يا ابن الحضارة العريقة.. " تشاجرا قليلاً ثم افترقا.

في غرفة بيضاء الكثير من روائح التنظيف والمطهرات، هدوء مطبق. يحاول شيان فتح جفونه وهو ملقى على السرير. فتحهما بالكاد وتعلقت عينيه في سقف الغرفة محاولًا الاستيعاب. لا يتذكر شيئًا. أين كان آخر مرة؟ وبينما هو كذلك أحس بكف دافئة تربت على يده اليسرى التي كانت متدلية من على السرير. نظر إلى الكرسي بجانبه. لأول مرة تفاجئه الحياة بشيء جميل. ظلت ملاحه متجمدة:

- " لقد اصطدمت بسيارة أمام الصيدلية.. ربما شردت قليلاً وأنت تسير..".

- " آه.. تذكرت كنت سأحضر الدواء لجيو.. كنت مهمومًا ربما أخذني التفكير فلم أشعر بنفسي..".

- " لا عليك ارتح الآن.. لحسن الحظ لم تصب بإصابات خطيرة.. فقط بعض الرضوض ستشفى قريبًا..".

- " حسن الحظ كله لأنك هنا ليلك!..".

توردت وجنتيها بشكل كبير، شعرت بجسمها يوغز، شفيتها تجربها على الابتسام. شدت من عضلات وجهها، حاولت الثبات. هذه الأمور لم تخلق لها، عليها الابتعاد. الذين

كتب عليهم التخفي والعيش بعيداً عن الأنظار. ليس عليها أن تسمح بأن يتخلل حياتها سراب هي تعلم أنها ليست قادرة عليه، ليست قادرة على المواجهة. اليد الموضوعة تحت الصخر يجب أن لا تسحب بالقوة. عليها أن تكمل حياتها بحدوء دون أي أضرار أخرى تكلفها حياتها حقيقة بعد أن فقدتها معنوياً.

- " لما تصمتين ليلك؟ .. هل هناك شيء يخيفك؟ .. هل تعانين من مرضاً ما؟ مشكلة ما؟..".

قالت وهي تنهض من على الكرسي تم بالرحيل:

- " تبدو بخير الآن .. شيان .. عليّ الذهاب..".

وهي تدير مقبض الباب، استوقفها بصوت لطيف:

- " ليلك.. لن أجبرك على قول شيء لا تريدين قوله بعد الآن.. كوني مطمئنة.. أيضاً إن أردت أن تشاركي همك مع أحدهم .. سيكون ذلك من دواع سروري..".

كان الصدق واضحاً في ملاحظة. في الحقيقة شيان لم يكن بذلك السوء. كان ينتقم من القوانين يشعر بأنها سبب عذابه، لكنه لم يكن مستعداً أبداً أن يقف بجياد أمام احتياج الآخرين. خرجت ليلك من الغرفة دون أن تنطق ببنت شفه. صوت الباب وهو يُغلق كان كل ما سمعه شيان منها.

الفصل الثاني

"مقتل 10 أشخاص صباح اليوم الخميس أمام مركز شرطة في مدينة كاشغر في مقاطعة شنجيانج، وكما صرحت السلطات الصينية الرسمية أن الحادث كان مفتعلاً من قبل بعض المتطرفين الإسلاميين في المدينة الذين هاجموا أعضاء حملة (الهدف هو الجمال)، وهي حملة منظمة لتطوير الإقليم والقضاء على المظاهر الرجعية كعادة غطاء الرأس، ولبس الملابس السوداء التي توحى بالكآبة وتخيف الأطفال، وقوبلت هذا الحملة الإنسانية الخضة بالعنف..".

- " اغلقي هذا الهراء.. يا مليكة.. " بصوت منفعل، ويدها مشغولتان بحشو المنتو.
- " اغلقته يا خالة.. هؤلاء كذبهم يجري على ألسنتهم كالسيل.. " كانت تحفف يدها من الماء بعد غسل الخضروات. تعد خالتها اليوم مائدة غداء لصديقاتها المقربات. يحتاج المرء أحياناً أن يكون مع الذين يحبهم فيبادلهم همومه، لكن ذلك سيتحول إلى كارثة إن لم تأخذ إذناً من مركز الشرطة القريب من دارك قبل التجمع بيوم أو يومين. قد يسمحون وقد يرفضون. لحسن حظ السيدة قبل طلبها في إقامة دعوتها.

- " من الذي يوحى بالكآبة الحجاب الذي أمر به الله أم هجماتهم الفاشلة في تخفيف أصالتنا ومعتقداتنا؟؟ .. من يخيف الأطفال الفطرة التي اختارها الله لنا أم شذوذهم الذي تهجموا به على النساء أمام أطفالهن؟؟ .. وحرموا الأمهات من فلذات أكبادهن.. إسلامنا أم فاشيتهم؟؟.." كانت تتميز من الغيض، وتتكلم بانفعال، تركت المنتو من يدها، نفضت ما علق بيدها من اللحم المفروم، ثم مسحت أناملها المشحمة بمنديل صغير بجانبها، اغمضت عينيها لتهدئ قليلاً من انفعالها. اقتربت مليكة منها تشد على ساعدها لتخفف عنها. تنفست السيدة فاطمة عميقاً ثم تنحنت حتى تخفف من حدة الغصة التي خنقتها، وأردفت وهي تنظر صوب الفتاة:

- " وغيرها كثر يا حبيبي.. كم برعنَّ المسلمات في مجالات عدة.. كنَّ ذوات كلمة مسموعة.. كانت إحداهنَّ تصوب كلام الرجل فيُسمع لها.. كن ركائز في كيان أمتهنَّ.. ارتفعنَّ بعلمهنَّ ودينهنَّ.. لم تَرى أبدًا واحدة منهنَّ.. أن التعري وخلع الحجاب.. والتبختر بين الرجال شيئًا يجلب المكانة أو يُثبت الذات.. "

قالت مليكة بتنهد:

- " ليت قومي يعلمون.. "

توقفت عن الحديث، أسرعَت نحو الباب تجيب الطارق. كانت السيدة عائشة قد سبقت الجميع في القدوم امرأةً بدينة، لطيفة، على وجنتيها غمازتان، ابتسامة صغيرة ترفع وجنتيها الممتلئتين، ترتدي وشاحًا أخضرًا تعقده أسفل ذقنها، تحمل بيديها سلة خشبية بها بعض الفواكه. صافحت مليكة بجرارة ثم ناثرت قُبُلها على جنبي الفتاة المخرجة.

- " لم يكن مخططًا ذلك الولد المشاغب.. حين قال: ليست جميلة فحسب بل جميلة الجميلات .. " قالتها وهي تتفحصها بنظرات ذات معنى. اكتسى وجه مليكة بثوب سايف من الحياء، تلعثمت، اضطربت ثم فضلت الهروب بحجة اللغمن الذي قد يحترق على النار.

*

*

*

سُمع دوي هز أرجاء المنطقة حتى أن الضوء الناجم عن الانفجار قد انعكس على الأشجار المجاورة لمقر العملية، جراؤه قُتل خمسة جنود صينيين في أحد نقاط التفتيش في طريق مقفر خارج (أقسو)، المدينة التي شهدت مجازر دموية كبيرة، كل ذرة من ذرات ترابها تحمل حكاية مأساوية. قام النظام الصيني بدوريات مسح و استئصال لأي معتقدات دينية في المدينة، تم مdahمة بيوت القرآن السرية، ونُزع الحجاب من على النساء بالقوة، وهذه الأمور لا تقتصر على مدينة بعينها بل إن تركستان كلها تنزف من كل مدينة وقرية. كل عين في تركستان تدمع ، وكل قلب يُدمى. في شارعٍ فرعي يبعد عن الشارع الذي تمت فيه العملية بثلاث شوارع أخرى

رئيسية، كان هذا الطريق المؤدي إلى قرية صغيرة من القرى المتزامية خارج أقسو، فيه تقف سيارة سوداء فيها رجلين يلبسان ملابس عصرية كتلك التي يلبسها الصينيون. في الأمام رجل في الثلاثين من عمره يلبس بنطالا من قماش الجينز، وقميصا أبيضاً عليه رسومات سوداء. أما الآخر فقد كان أصغر سناً من الأول كان يلبس قبعة رمادية على رأسه ويلف شالاً أحمرًا حول عنقه، كان الشال مرتفعاً قليلاً حتى أنه أخفى بعضاً من ملامحه، أما قميصه و بنطاله فقد كانا بنين. كانا صامتين يرتقبان أمرًا، قلب كل منهما كان يرجف؛ فالخوف أمر طبيعي يصيب الإنسان في بعض المواقف، بعض الأمور تكون أكبر من تحكم البشر، خطأ واحد يكلفك روحك التي بين جنبيك. كانا يسبحان، ويتجولان بخواطرها باضطراب. طرق أحدهم النافذة من الجهة اليمنى، انتفض الرجلان من الفزع. الشاب الذي يجلس في الجهة اليمنى ظلّ أن من ينتظرانه قد أتى، ظهرت عليه ملامح الارتياح شيئاً فشيئاً، اخذ يحشر الهواء في أنفه بعد أن فرغت رئتاه من الهواء من فرط الخوف، رmqه الأكبر بشدة، و صوب إليه نظرة حادة قذفت الريبة في قلبه مجدداً، ثم فتح النافذة. تجمدت ملامحه أكثر. كان قلبه يدق بشدة. باغته سؤال الشرطي:

- " من أنتم؟ وماذا تعملون هنا؟... " كان حذراً جداً في خطابه. تفحص وجهيهما، ينظر في المقاعد الخلفية، سلط ضوء المصباح الذي في يده على أرجاء السيارة.
- " نحن سائحان؛ لكننا قد تعبنا من السير في الطريق.. أردنا أن نرتاح قليلاً.. نريد العودة إلى المنزل قبل الغد.. لذلك اضطررنا للسير ليلاً.. " كان الرجل يبتسم ويتكلم بثقة، ثم وبدون تردد مدّ له هويّتا تعريف. ثم أردف " ألا توجد فنادق للنزلاء السياح هنا يا صديق؟؟...".
- " لا.. هنا فقط بعض الهمج البربر.. أنصحكما بالمغادرة الوضع سيئ اليوم.. هناك انفجار قريب من هنا.. ثم أنه لا يسمح بالوقوف في مثل هذه الظروف حتى لا تكونا عرضة للخطر..".
- " حسناً شكراً لك..".

سارا ببطء شديد بعد أن غادرهما المتطفل الأخرق ارتخت عضلاتهما المتشنجة. بعد خطوات يسيرة طرق أحدهم الزجاج الخلفي للسيارة بقوة فزع كلاً الرجلين واقشعرت أجسامهما. أوقف منصور السيارة التي كانت شبه واقفة أصلاً فُتح الباب الخلفي، ثم دخل شاب وجلس بعد أن أغلق باب السيارة. كان يحول بنظره بين منصور كوتشاري وعبد الحق خوجة. حيره منظرهما الذي لم يتخيله هكذا أبداً، ظنَّ أنه سيرى رجلين كبيرين في السن، أو حتى لا يلبسون هذه الملابس. لو أنه لا يحفظ رقم السيارة عن ظهر قلب لقال بأنه قد أخطأ العنوان.

- " هل أحضرتما الأمانة؟؟ .." قال الشاب بحذر شديد وصوت منخفض. كان ينظر في المرأة.
- " إلى أين يجب علينا التوجه؟؟.." قال منصور. وهو يضع يديه على المقود.
- " إلى بيت نائي عن القرية المجاورة تسكنه عجوز طاعنة في السن وحفيدها الشاب.. اتبع اشارات يدي..".

أومئ منصور برأسه وسار خلف إرشادات الشاب. كانت القرية مظلمة وهادئة جداً لا عجب فالليل قد ادلمهم منذ وقت طويل ، خيم على الجميع سكوت مطبق، لا يُسمع إلا ارتضاض الحجارة على الأرض تحت السيارة. في مشارف القرية كانت هناك مساحة واسعة لا يوجد بها أي أبنية. وبعد مسافة لا بأس بها كانت هناك بركة ماء صغيرة، القمر في منتصفها كعين مشعة من الضوء، كان منظرًا يذهب الوحشة التي اضفاها سكون القرية مسبقاً في النفوس. صراخ الليل تنق، وحشرة خفيفة بفعل دواب الليل، نحاد البومة يتردد في الفضاء. على الجهة اليسرى من البركة يقبع كوخ قديم يقف شامخاً في وسط أرض عشبية فارغة، من خلف الكوخ أشجار طويلة وكثيفة يبدو أن هناك باباً خلفياً يدخل منه الطلاب من الخلف يؤدي إلى تلك المنطقة الكثنة بالأشجار الموصولة بين الكوخ والقرية. وصلت السيارة إلى منطقة قريبة من الكوخ. نزل الشاب ليتفحص الطريق، مشى باتجاه الكوخ ثم قرع الباب، خرجت امرأة كبيرة دل انحناء ظهرها وتلكؤها في المشي على أنها المرأة صاحبة الكوخ، نظرت نحو

منصور وعبد الحق وشارت إلى الخلف. تحركت السيارة لتلتف حول الكوخ وبالكاد وجدت طريقًا تسير فيه فالأشجار أخذت حينًا كبيرًا من المساحة الخلفية. خرج منصور من السيارة وفتح الصندوق الخلفي للسيارة، ساعده عبد الحق لإخراج سجادة ثقيلًا، حملاه بطريقة عرضية ثم أدخلاه للكوخ القديم، أدخلتهم العجوز إلى غرفة مجاورة للباب الخلفي. كانت غرفة كبيرة فارغة إلا من حصيرة كبيرة على الأرض ورفوف فيها بعض الكتب و الأقلام. وضع السجاد على الأرض ثم فتchاه.

- " هذه فقط للتمويه.." بادر بالإجابة عبدالحق ليزيل التعجب من وجه المرأة.

تطاوالت الأيدي للمساعدة في فتح السجادة المحكمة الإغلاق كانت مطوية بالحبال، بعد أن فردوها ظهرت المصاحف الثمانية التي استطاعوا التسلل بها إلى هنا. لقد حالفهما الحظ كثيرًا حين لم يكشف أمرهما، فكم من الذين حاولوا انتهى بهم الأمر في سجون النازية أو في المقابر. من الصعب جدًا أن تكون مسلمًا هنا، إن وجدوك تتمتم بالقرآن أو تظهر أي مظهر ديني فما ستراه لن يسرك أبدًا، فلا بد أن يعاقبك بعقاب تتذكره حتى آخر يوم في حياتك هذا إن نجوت بها.

تستطيع العيش في عزلة فلا يكدر أحد حياتك. أن تجلس في سفح جبل أو تختبر لك وادٍ خصب تمارس فيه طقوس الحياة التي ترغب بها. لا تعبًا بجور الجائرين، ولا ظلم الظالمين، قد تبدو أنها طريقة مريحة للعيش تستحق التجربة، لكن ما يمليه القلب والإيمان لا يستقيم مع هذا النوع من التجارب؛ إذ لما قد تُخلق كف لا تمتد إلى المحتاجين؟!.. لما قد يُخلق قلب لا يتألم لحال إخوة الإنسانية؟!.. لما لم تُخلق فرادًا؟!.. لما جُبلنا على الترابط والتضامن؟!.. من يعد نفسه إنسانًا إن لم تشع في داخله شمس الرحمة؟ بينما أنا أفكر في كل هذه التساؤلات والبدييات التي أخاف أن تجربني الضغوط على فقدها. لم الكذب يصل الإنسان أحيانًا لأن يفقد معنى الحياة؟ ما قيمتها إذا فقدت معاني كل ما فيها؟ أن تُسلب سعادتك، أحبابك، موطنك، دُفئ قلبك، حرارة شعورك. أن تتجمع آلاف الغصص في حلقك، أن تشاهد الناس يعاملون كالشياه

المساقفة. أن تطمس العقائد، أن يصبح الدين جريمة، والعفة قهمة، والدفاع عنهما إرهابًا. وأنا أتلاطم بين هذه الأمواج غارقًا أبحث عن قشة لأنجي شرقي الذي أراه يُستحل أمام مرأى كل راءٍ ومسمع كل سامع، أفرعني شيخ الجبل يحيى خان بصوته. لم يكن صاخبًا لكنني كنت في عزلة روحية لم تنح لي سماع خطواته وهو يقترب مني:

- " في أي شاطئ رسيت يا مسلم؟؟.. " وضع يده على كتفي.
 - " قل إني ما زلت أبحر في بحر لا شاطئ له.. " لم أنظر إليه استقر نظري في البعيد.
 - " لكل شيء نهاية.. ".
 - " بعض النهايات تأتي بعد فوات الأوان يا شيعي.. ".
 - " لذا أعمارنا لا تعد بالسنين التي تبدأ بشهادة ميلاد وتنتهي بشهادة وفاة.. ".
 - " أظنني لم أفهم.. " التفت إليه، أخذت أترجح قليلًا من على الصخرة الكبيرة_ عادة ما أقضي السحر عليها_ جلس الشيخ بجانبني .
 - " يا مسلم .. خذ عني:
- الأيام تنقضي والأعوام تمضي.. والأجساد تموت.. والأفكار تبقى.. التضحيات المبادئ.. هذه أمور تحمل معنى أكبر من نهاية.. ".

توقفت أتأمل وجهه السمع ومن خلفه الشمس تبدأ بالبروز.. وسرحت في الكلمات التي تخرج من فمه كأنها ماء سلسبيل يروي بها عطش فؤادي. كم يحتاج المرء لمن يرده من هواجسه، يحميه من نفسه. شعرت بالامتنان للقدر الذي جمعني بالشيخ. ثم سمعت حشجة بين الأشجار. بعدها ظهر شخص من خلفي همس في أذني، هزرت رأسي، ثم نهضت من على الصخرة، ورفعت يدي إلى السماء وأنا في قمة السعادة هذا الخبر الذي كنت أنتظره من الليل " الحمد لله.. بلغهم الرد الحاسم.. ليعلموا أنه ما زال للإسلام نبض.. ليعلموا أن الوطن ما زال شابًا فتيا على موته.. " .

*

*

*

كانت الواحدة ظهرًا حين دخلت ليلك مقهى الطلبة القريب من الجامعة. كانت كعادتها رقيقة، أنيقة، وهادئة. ارتدت ثوبًا سماويًا يغطي ساعديها ويتدلى إلى أسفل ركبتها، كان يتموج حولها بفعل الريح مما جعلها كحورية تسبح في بحر لحي. كانت تحمل أوراقها تتلفت يمينًا وشمالًا حتى رأت مكانا شاغرا تستطيع أن تجلس فيه لإكمال عملها. مشيت بخفة بين الطاولات تتعدها لتصل إلى الطاولة التي اختارت الجلوس عليها وأثناء حركتها رأت العجوز صاحب المكان يشير إليها بيده مرحبًا، على ثغره ابتسامة حانية بادلته الفتاة التحية؛ إذ كانت ليلك من الطلاب الذين يعودون مقهاه باستمرار وهي الأثرة عنده فلم يكن يبخل عليها بالنصائح. وضبت أوراقها وجلست على الكرسي، وهي تعبث بين الأوراق وتحاول أن تجمع شتات فكرها بين كل هذه المعلومات المترامية، إذ فاجأها كَفُّ حالت بين الأوراق وعينيها. استدارت لتتظر، وإذ بشيان يلتف حول الطاولة ويزيح الكرسي المقابل لها ويجلس فيه. جمدت عينيها لوهلة بدت ملاحظها مستفسرة.

- " أريد العمل معك ليلك.. أريد أن أكون شريكك في مشروع التخرج.. أسمحين؟؟؟..".
- " أنت لم تبدأ إلى الآن.. ثم إنك لا تستطيع العمل معي.. جيو شريكك..".
- " لا تذكر لي ذاك الأبله.. إنه لا ينفع في هذه الأمور.. وأيضًا نستطيع أن نكون فريقًا واحدًا.. أنا وأنت وصديقي الأخرق.. إنه مريض على كل لا يستطيع بذل مجهود كبير..".
- " لا أستطيع.. ردت بحزم.

خيمت سحابة من خيبة الأمل على ملامح شيان. ظنَّ أنه سيفلح في إقناعها، لو كان يريد موضوعًا عاديًا لاستطاع إيجاده من أول وهلة، لكن...

- " شيان.. " قالت مقاطعة بصوتها الرقيق، فكأما نفضت بصوتها غبار يأسه. نظر إليها مشدود الذهن يتعطش لسماع ما بعد هذا النداء الساحر. صمتت تستجمع الكلمات في فمها:
- " هل يمكنني الوثوق بك؟.. ".
- " بالطبع يمكنك!! " قالها بعد برهة تفكير. حتى أن حيرته من قولها نطقت من تعابير وجهه.
- " إن أردت العمل معي فهذا سيكلفك الكثير.. لأن ما أعمل عليه ليس من شأن الضعفاء في شيء.. ".

لفت الحيرة فؤاده أكثر. عن ماذا تتكلم هذا الفتاة؟ كيف لمشروع تخرج أن يكون مخيفاً لهذه الدرجة؟؟

- " ماذا تقصدين ليلك؟؟.. " .

ابعدت كوب الماء من أمامها. يداها معقودتان أمامها، انحنت على الطاولة، فكرت قليلاً. ربما هذا أول الخيط، لم لا تتخذ خطوة جريئة مع هذا الشاب المتحمس، تكسبه لصفها، وتدعوه للإيمان بقضيتها. تنحنحت ثم قالت:

- " علينا الذهاب في نزهة.. " ثم اتبعها بغمزة صغيرة. أوحى لسيان بنظرها ونبرتها أن الأمر جدّي كما أنه خطير. يبدو الأمر أكبر من كونه مشروع تخرج هذا أشبه بمشروع حياة. تركت المقعد بعد أن جمعت الأوراق المبعثرة. ثم اسرعت خارج المقهى، ماهي إلا لحظات حتى لحق بها شيان.
- " ما الأمر؟؟.. " بادر بالسؤال.
- " اتبعني.. " أجابت بجديّة.

لم تزد على ذلك. جاءت الحافلة؛ فالحطة محاذية للمقهى. ركضت نحوها ومن خلفها شيان يتتبع خطوات سيرها بلا هدى. صمتا في الحافلة طويلاً وأخذ السرحان منهما كل مأخذ.

(يوان مينج يوان) الحديقة الساحرة. الأرض تكتسي حلة خضراء باهرة، الحديقة الملقبة بمديقة الحدائق، إنها القصر الصيفي للعائلة الامبراطورية. الأشجار متشابكة، المناطق المخضرة الواسعة، خربير المياه، زفرقة العصافير، أزهار الأقحوان المفتحة تتراقص، الأغصان المائلة بدت كأنها تحيي الزوار، البرك الواسعة وفي مضيقها جسور صغيرة، القصر المنصوب في المنتصف تحفة فنية تتحدى عوامل الزمن، السياح يملئون المكان. بعض الأعراس تقام هنا أيضاً. وليلك وشيان يتخيران مكاناً للجلوس. اختارا منطقة بعيدة عن الأنظار على جسر ناءٍ قليلاً فوق بركة صغيرة في طرف الحديقة. ليلك تولت هي الأمر وشيان لا يتجاوز أن يكون تابعا لها. سارا حتى استقرا على المقعد الحجري على الجسر ناء.

- "أولاً اخبرني عنك يا شيان.. عن طفولتك.. عائلتك.. موطنك..".

أدهشه هذا السؤال هو جاء لسمع منها لا لتسمع منه. جاء ليتساعدا في عمل
يبعد تمام البعد عن هذه الأمور. تجعدت ملامح وجهه، رفع يديه يحاول قول شيء ما،
لكن سرعان ما ضرب بهما على فخذه في خيبة:

- " لا أعلم ليلك .. هناك أشياء كثيرة عني لا علم لي بها .. كان لدي شبهة أب لكنه ذهب .. هذا كل شيء " .

صمت يستجمع نفسه أحس بالكلمات تطعنه من الداخل، بلعومه ينزف من إثرها، شعر بأنه قد أُنْهَكَ لمجرد ذكر هذه الكلمات البسيطة، من الصعب جدًا أن لا يكون لك تاريخ معروف، الكلمات الدامية أثارت أحاسيس ليلك أيضًا، فهي الأخرى تجمعت العبرات في حلقها ثم شرعت قائلة:

- " نحن متعاكسان شيان.. أنت تحاول إيجاد ماضيك.. وأنا أحاول نسيانه.. أنت أملك في أنك لم تجد نفسك.. وأنا في إضاعتها.. الحياه مليئة بالعقبات.. كما البشر مكتظون بالأسرار.." تنفست قليلاً، جمعت كفيها ثم أرادت أن تكمل وفي هذه الأثناء التطم شيء مستدير على كتفها الأيمن. التفتت فإذا بطفل صغير يركض على مشارف الجسر بتجاههما يبدو سعيداً كان يقذف بالكرة. يركض فرحاً، عفوي الحركة، لا يتصنع السعادة، هو حقاً يشعر بها. قلوب الأطفال تتلهف لأي شيء هذا ما يجعلهم أسعد الناس. كانت أمه تلحقه في الخلف وقد بدى عليها السأم من ملاحظته. انبسطت ملامح الشاين مباشرة لرؤية الطفل وارتسمت عليهما ابتسامة لطيفة. التفتت ليلك نحو شيان وهي تمسك موضع الرضة وانفجر الآخر ضاحكاً في وجهها، وضع يده على فمه ليكتمها لكنه لم يستطع. كانت متحمسة للحديث فكان جزاؤها ضربة على كتفها، لم تتمالك نفسها ضحكت هي الأخرى و أسرع في أخذ الكرة ورمتها على رأس شيان انتقاماً من سخريته منها، كما ذهبت باتجاه الطفل تعاركة ممزحة، "أول مرة أراك بهذا اللطف" أسرها شيان في نفسه.

لم تكن الشمس قد غابت تماماً بعد. مازال الشفق الأحمر مسيطراً على الأفق كراية حمراء لواحة. في تلك الحينة طُرق الباب بعنف، وثبت السيدة مريم من على سجادتها تتلأأ باتجاه الباب ما إن وصلت لبداية الممر المؤدي إليه حتى فُتح الباب عنوة من الخارج. دخل رجال كالجراد المنتشر وعليهم أزياء الشرطة. مشهرين العصي والمسدسات المثبتة بأيديهم. بُهتت المرأة، تسمرت في مكانها كأنها وتد محشور في الأرض، بدى الرجال يبحثون عن شيء داخل المنزل، تنقلوا بين الغرف، حتى وصلوا للأخيرة، حينها رُفع الصمت عن المرأة. صرخت عالياً:

- " ابنتي مريضة في الداخل لا تفرعوها..".

برود التفت إليها الشرطي المتغطرس الذي كان يمسك بمقبض الباب. كان يحمل عصاه في إحدى يديه ويمسك بالأخرى سيجارة. نظر للسيدة طويلاً ثم تحرك بعيداً عن الباب، بدى كأنه تراجع عن نيته. وفجأة أسرع باتجاه الغرفة مجدداً ورفع رجله بمحاذاة المقبض ثم فتحه بركلة هزت الباب هزاً. كانت السيدة مريم تكتم آهاتها، كلاً كفيها كانا يسدان ثغرها. رأت أن التوصل مع هؤلاء يؤدي إلى نتيجة عكسية، أغلقت أذنيها. كان الصوت الذي يخرج من الغرفة مرتفعاً. ركل، صفع، صراخ، توسلات، وأشياء تُلقي على الأرض، أصوات ارتطامات قوية. أرادت المرأة إنقاذ ابنتها. فتشبث بها الشرطيان اللذان كانا يجانبا بقوة. بعد قليل خرج الشرطي والفتاة بيده. فتاة في بداية العشرينات تضع حجاباً أبيضاً على رأسها. لم يكن الحجاب مستقرّاً عليها؛ إذ لم يكن يستر مقدمة شعرها. يدها كانت متشبثة به ما أمكنها ذلك. بدت الرضوض في وجهها ملحوظة، وبقع الدماء على رداء الصلاة الأبيض. كانت دموعها تنهمر بغزارة وصوتها قد بُح وهي تعارك ببسالة. يد الشرطي على رقبتها تجرها كالشاة أمامه، ويده الأخرى يسد ضربات الفتاة الموجهة نحوه. والآخرا يثبtaan المرأة المفجوعة في ابنتها. أما باقي رجال الشرطة فكانوا يتقهقهون، وينظرون هنا وهناك يبحثون عن أي شيء للإدانة.

- " سنستعير ابنتك الجميلة قليلاً.." قال الشرطي الممسك بالفتاة.
- " لا .. لا .. حُسنه حبيبي.." كانت تقولها وهي تحاول الخلاص من الجائئين عليها لكن لا فائدة. حيطان المنزل تتلاطم بأصوات البكاء والضحك. كيف للضحك والبكاء أن يجتمعا؟؟ حين يفقد الإنسان إنسانيته، فلا يبالي بما حوله، يتحول إلى وحش سادي يسعد لألم الآخرين. وعندما يصبح الإنسان آلة لتأدية الأوامر دون الالتفات لصوت العقل والضمير ينزل إلى ما دون منزلة الحيوانات. لا ضابط لسلوك الإنسان إلا القيم؛ فمتى ما خلت منه لا يستحق أن يقال عنه إنساناً.
- " أخذت حُسنه إلى المجهول.. السيدة مريم فارت الحياة إثر سكتة قلبية.." قالها سليم وهو يلهث أمام غرفة مليكة.

- " ماذا تقول؟؟.." صرخت بكل صوتها، هزت رأسها منكراً، رمت الكتب التي عليها. تريد البكاء لكن شيئاً في صدرها قد تجمد. أنفاسها تنقطع وهي تنظر إلى أخيها الرجل العظيم يفرك عينيه الحمراوتين، كأن مقلتيه تمطر دماً. كان يستند بيده على الباب يحاول جاهداً أن يعدل من قامته. تجمع الصبية الصغار من حوله، فزعين لما حدث لأبيهم.
- " إننا نخسر فتياتنا يا أخي..".
- " اللهم إنا مظلومون فانتصر.. " ردها مراراً ودمع عينيه لا يقف، ثم ترنح بلا هدى يمشي بعيداً.

لا تدري مليكة كم أخذ منها الوقت حتى وصلت إلى دار الشيخ أبي محمد. سارت تائهة في الشارع بعد أن تلقت خبر موت السيدة مريم، واعتقال صديقتها المقربة حسنة . لكم عملتنا معاً، وخططنا. كانت مليكة تدرّسها القرآن خفية، بعد أسبوعين كانت حسنة ستتم حفظ كتاب الله، لتصبح هي أيضاً معلمة للقرآن مثل مليكة، كانت تأمل مليكة أن تخفف حسنة عنها بعض من أعباء التدريس فتصلا إلى أكبر قدر من الفتيات، لكن سخط الله على سارقي الأحلام، وقاتلي الآمال. عندما أرادت مليكة طرق باب المنزل وجدته مردوداً، دفعته برفق ثم دخلت، سارت حتى وصلت لغرفة الشيخ. كان يُقري الأُولاد سورة الإخلاص خشيت مليكة المقاطعة. توقفت بجانب الباب لم تحملها قدماها، هبطت إلى الأرض، شدت ركبتيها إلى صدرها، وأسندت رأسها عليهما وأنصتت لتلاوة الشيخ وتلاوة الأولاد بعده. كأنهم في عالم مختلف بعيدين عن آلام الموت والحياة، يسبحون في ملكوت الآيات، تحوم أرواحهم في نورانية الله. كان صوت الشيخ يخرج ليخترق أذنيها بدون إذن حتى تهرز كلماته قلبها وتنفض عنها اليأس نفصاً:

- " اعلموا يا أبنائي.. أن كل الديانات التي نزلت من السماء أتت لمحاربة الشرك.. وتأصيل وحدانية الله في القلوب.. عندما نوحده الله فنحن لا نخاف ولا نرجو ولا نستعين بأحد سواه.. الله (أحد) أي واحد لا له قبل ولا بعد.. (صمد) ملجأ

للضعفاء.. يسمعك حين تحل عليك المصائب.. يرى تربص المترصين.. يحميك من كيد الأعداء.. (لم يلد ولم يولد) ليس له زوجة ولا أب ولا ابن.. متفرد بالألوهية وصفات الكمال والجلال... (ولم يكن له كفوء أحد).. أي لا يشبهه أحد من الكائنات في قوته ولا هيئته ولا عظمته .. عندما تستشعرون هذه الأمور يا أولادي فلن تحزنوا ولن تخافوا.. ستشعرون بأنس الله لكم.. وعونه ودعمه ومساعدته لكم في كل حين ولحظة.. الله يعني الأمان.. يا أعزائي..".

- " الله يعني الأمان.. " رددتها مليكة بيقين و أغمضت عيناها مستشعرة حلاوتها في فمها. ما أجمل الرسائل الربانية التي تصلنا من الله في الأوقات التي نكون بأمس الحاجة لها!!!.. ما ألطف الله حين يثبت القلوب بعد كل بلاء!!.. بل في بلاءه كل خير. عادت الفتاة لحالتها السابقة بل عادت أكثر عزماً وأشد إصراراً.

خرج الصغار كأنهم ولدان مخلدون يملأ وجوههم النور. كانوا يتهايمسون فيما بينهم. كانوا خمسة أولاد في سن العاشرة _ لا يسمح بحضور أعداد كبيرة للسلامة الأمنية _ لكنهم بذور طيبة لشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين.

دلفت الفتاة الباب ثم تحركت بضع خطوات نحو الشيخ الذي كان يوظب الكتب المرسوفة أمامه. انتبه لدخول مليكة، لم يلتفت نحوها استمر في انشغاله وقال بصوت رصين:

- " ما الأمر يا ابنتي؟؟..؟".
- " حسنة.. " قالتها بحرقرة.
- " نعلم ما حل بها.. " قالها بحزن.
- " إذأ؟؟؟.. " باستنكار واضح.
- " الصبر.. الصبر.. ".
- " الصبر المصحوب بالعمل.. لا بد أن أقوم بعمل ما.. " قالتها والشرر يتطاير من عينيها كأنها تأمره لا تأخذ الإذن منه.

- " لكل وجهة هو موليها..".
- " لم أفهم!!! " بنفاد صبر.

كان طول ذلك الوقت يجاوب على أسئلتها باقتضاب وهو يعبث في الكتب التي بين يديه. يكتب شيئاً، يقلب الصفحات، يرتب الأوراق مما زاد غضب مليكة. شعرت بأنه لا يكثر، كأن ما حدث لا يعنيه. نظر إليها أخيراً، ثم أمرها بالجلوس بإشارة من يده. اقتربت منه أكثر ثم أخذت تتموقع على الأرض. عقد أبو محمد يديه أمام صدره وقال بصوت متزن:

- " خلقنا الله مختلفين عن بعضنا.. لكل واحدٍ منا جانب يتميز به عن الآخر.. بعضنا خلق للسلاح مثلاً.. يدافع عن المظلومين و ينهي ظلم الظالمين.. والبعض يتعبد إلى الله بسماعته الطيبة.. يداوي الجروح ويخفف الآلام.. وآخرون يتعبدون الله بالكلمة الطيبة والنصيحة الحسنة المبنية على الإيمان العميق بقضية مقدسة.. كَأَنْتِ تَمَامًا.. وظيفتك هي نفص غبار الإلحاد الذي يترص بمدينتك.. واجبك هو أن تتعهدي قلوب أخواتك المؤمنات وتريلي عنهنّ الوهن واليأس.. وتشعلي فتيل الإيمان والمقاومة والثبات على الحق .. في عيادتكِ الصغيرة وأنتِ تداوين الناس وتصفين لهم الأعشاب.. أضيفي وصفات الروح التي هم في أمس الحاجة إليها.. أنتِ يا مليكة لا تستطيعين توجيه السلاح أمام المحتل لكنكِ تفصحين همجته الشوهاء بتجسيد المثل الرائد للمرأة المسلمة.. نحن بلد محتل منذ عشرات السنين.. الشيء الوحيد الذي يجعلنا نقف على أقدامنا هو إيماننا بضرورة الثبات على المعتقد والدود عنه بالحملات المضادة.. دفاعاً لا انتقاماً.. كنا قبل الاحتلال الصيني 35 مليون نسمة.. أما اليوم فأعدادنا قد تناقصت إلى 8 ملايين نسمة.. أما عن إسلامنا والحمد لله فلم ينقص منه شيء.. " .

لم تستطع مليكة الرد أو الزيادة على كلام الشيخ؛ فهذه الحقيقة ما الذي بوسعها أن تعمله أمام امبراطورية عملاقة كالصين، لكن بوسعها الكثير في إنقاذ دينها وتراثها من الداخل.

القوة قد تكون خفية لا تُرى للعين إلا بعد وقت طويل، لكن حين تظهر فلا شيء يستطيع إيقافها. عازمت الفتاة على العودة لعملها بين أخواتها تذود عنهن براثن الإلحاد ودنس الشيوعية.

تالفصل الثالث

كان الليل كئيبًا. كلياى الشفاء الطويلة، السماء سوداء، والقمر محتفٍ، لا إضاءة في طيات الجبل الكبير، الظلام دامس. و القائد مسلم باتور، يمشي بحذر في طريقه للوادي المواجه للجبل، يسير بين الأشجار هبوطًا. كان يضع شالًا أسودًا على رأسه، يكاد لا يرى من وجهه شيء إلا لمعة عينيه تعكس ضوء شاحنة أمامه مباشرة تقف أسفل الوادي، هناك كان منصور كوتشاري وعبدالحق ينتظران وصول القائد. لحظات حتى اجتمع الثلاثة وركبوا الشاحنة الكبيرة.

- " الخطة معقدة جدًا هذه المرة.." قال مسلم بجدية وهو يصعد الشاحنة.
- " يجب أن نسرع يا سيدي.. لقد رصدت حركات الجنود.. حسب دراسقي سيتغير طاقم الحراسة بعد وصولنا لنقطة الالتقاء بنصف ساعة.. طبعًا إذا تمكنا من السير بالسرعة المطلوبة.." قال عبد الحق .
- " سننقذ شرفنا هذه المرة.." كانت الكلمات تخرج ملتهبة من حنجرة سليمان.
- " إن شاء الله.." تتمم الثلاثة.

عند محطة وقود في منطقة غير مأهولة على طريق جبلي في سفح جبل "تيان شان" الذي يصل إلى (أورمتشي) _عاصمة الإقليم_ توقفت سيارة سوداء فارهة بنوافذ مضللة، تبدو لأناس ذو وجهة. باشر عامل المحطة بملء خزان الوقود. في تلك اللحظة وبشكل مفاجئ امتلأت الأرجاء بالأدخنة، كانت الأجواء ضبابية، لا يرى شيئًا سوى الدخان الأبيض، كل الذين كانوا يقفون عند المحطة بدأوا بالسعال الحاد. ترامى العمال بعد أن خارت قواهم، أصوات الصراخ بدأت تخفت شيئًا فشيئًا. بعد دقيقتين جاءت سيارة صغيرة بيضاء ثم ركنت بجانب تلك الكبيرة الفارهة. لحظات حتى خرج رجلان من السيارة الصغيرة، ركضا بسرعة وفتحوا أبواب السيارة حديثة الطراز. حدث عراك صغير عند الباب، كانت الغلبة للرجلين ذوى الكمادات، وبالقوة تم نقل كل الركاب إلى السيارة الصغيرة. سارت السيارة بسرعة هائلة بعيدًا،

وتدريجياً اختفت بين الظلام، بعد مرور عشرون دقيقة، توقفت السيارة. الرجلان في الأمام هم الشاب سليمان تركستاني وشاب آخر. خمس دقائق مرت وهم يقفون ينتظرون في ضاحية نائية أسفل الجبل، لم تمر الدقيقة السادسة إلا والفتيات اللاتي في الخلف بدأن بالحركة. كن ثلاث فتيات، التفت إليهن سليمان بعد أن رمى بالكمامة بعيداً، كانت أعينهن لا تزال مشوشة، كانت شعورهن شعثة، الملابس متسخة ومقطعة، بقع قدرة من التراب والدم، وجوههن شاحبة، الذعر كان ينطق من وجوههن بدون كلمات. أبعد سليمان عنهن الأقمشة التي قد سُدت بها أفواههن، وساعده الشاب الآخر بحل العقد التي قيدن بها. كل هذا والفتيات لا ينطقن بكلمة، فقط أنفاسهن المتقطعة تتوسل، وأعينهن التي كانت تسيل بلا توقف تطلب الخلاص. مرت عشر دقائق حتى أتت شاحنة كبيرة وسدت الطريق بالعرض. خرج مسلم من الشاحنة، فتح الباب للفتيات وأشار لهن بالخروج، بين أكوام الأقمشة المتروسة داخل الشاحنة حشر الفتيات أنفسهن بينها بأمر من القائد مسلم. ربت القائد على كتف سليمان بكل فخر.

- " الحمد لله تمت نصف العملية بنجاح.. بقي لنا إيصالهن للجبل الكبير ..أبليت حسناً يا سليمان..." كانت كلمات القائد حنونة جداً. نظراته لسليمان مليئة بالفخر، كيف لا وهو بذرة يده.
- " علينا التحرك .." قال منصور وهو يخرج رأسه من نافذة الشاحنة.
- " ما بقي من الخطة أصعب.. مما فات.." قال القائد مسلم بحزم. ثم أكمل " تمويه العدو والبقاء في دائرة الأمان أصعب مرحلة".

أعتلى القائد مسلم الشاحنة الكبيرة كما فعل سليمان ذلك أيضاً، أما عبد الحق فانطلق بالسيارة الصغيرة في أوساط المدينة المجاورة، ليعود لعمله في التخفي ورصد المعلومات.

- " وهذه هي الطريقة التي تم بها إنقاذ أختنا حسنة وأختيها عائشة وليلى.. يا أولاد.." أكمل الشيخ يحيى خان قصته و الأطفال يستمعون بشغف كبير.

- " عندما أكبر سأكن مثل القائد مسلم يا شيخخي.." صاح أحد الأطفال من الخلف بصوت كله حماس. في حين كانت الغرفة مكتظة بأطفال الجبل، يستمعون إلى قصص الشيخ، ويأكلون حلوى النصر؛ فسكان الجبل يحتفلون عندما يمن الله عليهم بنصر جديد على الأعداء، في الخلف كانت حُسنة تقف على الباب مسدلة رأسها على كتفها، تنظر إلى الأطفال بسعادة، وتجد في كلمات الشيخ قصة جميلة بعيدة عن القصة الحقيقية المرعبة التي عاشتها، كانت تبتسم بشكل تلقائي لردة فعل الأولاد وفرحهم بانتصار الحق على الباطل في هذه الجولة. ودائمًا ما كانوا ينتظرون أباءهم ليعودوا محملين بأخبار الانتصار. كل من في الجبل مغمور بالفرح، طافح بالأمل، متطلع إلى النصر الأكبر، يتأهب لعرس التحرير، عرس استقلال تركستان وخروجها من قبضة الصينيين الظالمة، كما حررت حُسنة.

- " زال البأس.." فجاءها صوت سليمان تركستاني من خلفها.

- " الحمد لله.. الشكر لكم أنتم بعد الله.." قالت بعد ارتباك.

- " ما شاء الله.." قالها بدون وعي، خرجت منه بتلقائية، كانت عينيه مازالت معلقة بعينيها، كم تشبه هذه الفتاة السحابة نقاء وصفاء وجمالاً، لم تجب الفتاة أحكمت حجابها الوردي وشدته على رأسها، ثم أخذت تهرول مسرعة باتجاه صديقاتها اللاتي كنَّ يرقبنها من بعيد ويتهامسنَّ بمكر. أما أنا فأرقب كل ذلك متكأ على أحد أعمدة المسجد القريبة من الباب المطل على الخارج بمجدوء .

*

*

*

كانت سوقًا شعبية تلك التي تقف في آخرها ليلك وهي ترتدي فستاناً أصفرًا وشعرها البني ملفوفاً على هيئة كعكة الدونات، خصلات من غرتها المنعكسة فيها أشعة الشمس تتمايل يمينًا ويسارًا تعبت بلامح وجهها، وجنتيها المنتفختين، شفتيها المتوردتين. حين يجتمع الاسم

والمسمى في شخص (ليلك)، ما أشبهها بزهرة الليلك!! كانت يديها ممسكتين بحقيبة فيها بعض الأوراق، وكيساً ورقياً أسوداً عليه بعض النقوش الحمراء. وقفت تنتظر، وروائح الطعام والبهارات تغزوا الأنوف كما فعلت بأنفها أيضاً. الكثير من الألوان من حولها في هذا المكان المبهرج باللون الأحمر كباقي الأماكن الشعبية الصينية. بعد أن كلَّت من الوقوف منتظرة، بدأت تتلملم ثم تلفتت هنا وهناك، أخيراً شدت أمتارها عجزوراً تبعد الكعك المقلبي _نوع من الحلويات منتشر جداً في الأسواق الشعبية في بكين_ أشرت بعض حبات منها، وضعتها العجوز في كيس بني صغير. ليلك كانت تعبت بحقيبتها لتعطي المرأة النقود، امتدت يدها من خلفها بشكل مفاجئ ودفعت المال للمرأة المسنة.

- " كفارة تأخري..".
- " أنت رجل مستهتر.. شيان.. لقد أضعت كل الوقت لن يتبق لنا أكثر من نصف ساعة للعمل.. " بشيء من الغضب.
- " أنا جاد هذه المرة ليلك .. لا تظلميني.. كنت مع جيو لأخذه إلى محطة القطار..".
- " لماذا؟؟؟ " بشيء من القلق.
- " المسكين مريض.. تزداد حالته سوءً مع الوقت.. قال بأنه يبصق الدم بعد نوبات سعال حادة.. لذا يرى أنه يجب أن يأخذ راحة مطولة في القرية.. تعرفين الجو هناك قرب والدته.. هناك أشياء تجلب العافية أكثر من عقاقير الأطباء..".
- العافية؛ كانت والدة ليلك تمسح على رأسها وتتمتم، كانت تتعافى بسرعة " العافية أم أيضاً.. " أضمرت ليلك هذا التعليق في نفسها.
- " ستكون حالته أفضل هناك.. " قالت بابتسامتها الساحرة.
- " أرجو ذلك.. " قال برجاء.

على بعد خطوات من السوق منتزه صغير. سار الشابان مسرعين الخطى نحوه، هناك كراسي منتشرة في كل مكان، الأشجار ملتفة حول بعضها، هناك أشجار مقصوصة على أشكال مختلفة زهرة كبيرة، مدرجات، دوائر منتظمة، لكن هموم الدراسة كانت مخيمة أيضًا. شرع شيان بفتح أوراق ليلك، نبش فيها، واخذ يقرأ منها بشكل غير منتظم، كلمتين من هنا أخرى من هناك، ليلك تخرج كتابًا صغيرًا تبحث أيضًا، استوقفها شيان متعجبًا بعد أن شعر بأنه لم يصل لشيء ذي قيمة.

- " عن ماذا تتكلمين؟؟.. جميع المعلومات المدونة تتحدث عن حقوق الإنسان.. يبدو أنك نسيتِ تخصصك!!.." ثم ضحك محاولا اكمال حديثه لكنه لم يستطع.
- " الموضوع يبدأ من هنا.." بدت جادة في حديثها.
- " ليلكي الجميلة.. نحن هنا بخير.. في الصين الجميع يعيش.. المدخولات الشهرية مختلفة.. صحيح يوجد فقراء.. لكن الدنيا جميلة أيضًا.. تكلمي عن ما نحتاجه نحن.. في الحقيقة أنا لم أفهم!.." " قلب الأوراق وأشار بيده إلى بعض الكلمات تتكلمين هنا عن اعتقالات.. تعذيب.. سوداوية أنت!! .. " قالها بقرق. لم يعجبه أن يضايق أحد الصورة الجميلة للحياة في نظره، لعب، هو، طعام لذيذ، أما ضغوط الجامعة، وأيضًا ربما ليلك وقلبها اللامبالي شيان مستثنان من متاعب الحياة. لكن حياته مستقرة، الشباب في السكن، سهراته أحيانًا، حفلات الأصدقاء، ماذا يريد أكثر؟؟
- " أنت جاهل.. " لفظتها متحقة من نطقها. قالتها وهي تعني كل حرف فيها.
- " عفواً.. ".

صعقته هذه الكلمة منها _صمتت دهرًا ثم نطقت كفرًا_ ظلت تمسك رأسها وتمسح بعض من قطرات العرق التي على جبينها، أصبح الضيق بادٍ عليها، بدأت تنفَس بسرعة كأن الهواء الذي في المنتزه قد أصبح ثقیلاً فلا تستطيع أنفها الصغيرة استنشاقه، والآخر ينظر متعجبًا، صامتًا، ينتظر ما بعد كلمة جاهل.

سكاكين تخرج من فمها لتنخر انسانيته، حقيقته، كيانه، لو كانت أسئلة لا تداهمه حين يكون وحيداً من كل شيء إلا من صوت الضمير في داخله _عقب كل جلسة من جلسات العريدة في مقهى ما، بعد الكثير والكثير من كؤوس الويسكي، حين يعود خالي الوفاض، معزولاً من منعشات الروح، من ضحكات المجون، وتصفيق الأيدي_ لاكتفى بضحكاته الساخرة، لنعته بالجنون والهذيان، لضربها على رأسها لتصحو من هذا الهراء، لكنها لم تكن إلا انعكاساً لشيء في داخله مفاده ثم ماذا بعد؟ نزع قبعته السوداء التي هي جزء منه، كأنه أراد لعقله أن يتنفس مباشرة دون أي أشياء وسيطة.

كبير فيه مئات الأسئلة التي تحتاج إلى من يفسرها.

ثم تراجعت عن حديثها قليلاً:

في الطريق..".

سارا جنباً إلى جنب بخطى متثاقلة، وأيدي ممتلئة بالأوراق، تواريا خلف باب المتنزه، ابتعدا حتى أصبحا خارج السوق الشعبية أيضاً. وصلا لشارع رئيسي فيه السيارات على الجانب الأيمن تسير بسرعة، الهواء يمر بسرعة يكاد يأخذ فستان ليلك معه، أمسكت به بكفها بقوة. الشمس تجر أذيالها مودعة، و بعض المحلات أضاءت الأنوار الليلية في تلك الأثناء بدأت ليلك بسرود قصة:

- " في ليلة جميلة صافية كان قمرها عروس جميلة تتزين لحفلة زفافها، كانت بشعر أسود فاحم، عينان رماديتان واسعتان، تستطيع أن ترى انعكاس وجهك عليهما، بساتين من الورد الجوري متفتحة في وجنتيها، حواجب كثيفة تضفي على ملامحها وقاراً مملوء بالهيبه وتزيد من جمالها، شفتاها تأخذان لون الدم، كأنهما مصبوغتان بتوت بري، ثوبها السايغ الأبيض يتدلى على جسدها الناعم. كل ما بها كان ينضج بالجمال، كانت تضع على رأسها وشاحاً أبيضاً مطرزاً، كانت كالقمر يوم التمام لم تكن شيئاً آخرًا. والدتها كانت لا تفارقها. تتفقد نواقصها، وتحوم حولها فرحة. الطبول تفرع في الخارج، الأطفال بملابس ملونة يوزعون الحلوى في سلال خشبية مزينة، النساء يغنين أهازيج شعبية. في البيت المجاور كان العريس يستعد بدوره، يلبس ثوباً أبيضاً يضع قبعة بيضاء على رأسه المسرح جيداً، يرش العطر، الرجال يلتفون حوله، يمتطرونه بالتبريكات والدعوات. في تلك الأثناء حدث مالم يكن متوقعاً، هجم قطع من الذئاب على القرية، يركضون ويركضون قطعان لا حصر لها، الدماء أثمر على الأرض، الصرخات تعلو، أصوات عراك، ثم انتزعوا العروس أمام أعين الجميع كانت تبكي وتتوسل وتنوح. لم يستطع أحد أن ينتزعها من بين الأنياب والمخالب، قتلت الذئاب أم العروس، وفر الجميع من القرية. كانت العروس ممسكة بوردة في يدها، أخذت العروس ووردتها إلى سجن كبير معتم لا أحد يعرف عنها، ولا هي تعرف عن أحد. سُرقت حياتها وحياتها وردتها ببساطة..".

- " هل أنتِ من ألفها.. أقصد هذه القصة الحزينة؟؟..".

- " بعض القصص تولد معك شيان..".

كانت عينا ليلك نديتين كسحابة مملوءة بالمطر، حزنها ظاهر في وجهها. سارت صامتة بجانب شيان حتى وصلت للحي الذي تقطنه، التفتت لشيان لم ترفع نظرها إليه، اكتفت بمد يدها مناوله إياه كيس الهدايا الأسود. اتسعت عينا شيان، أراد أن يرسم ابتسامة على شفتيه

لكن شفتاه كانت ثقيلة، أثقل من أن تتحرك. تناول الكيس منها بصمت، " كوني بخير.. " تتم بصوت خافت. ثم اختفت في الزقاق.

فُتحت باب الشقة، كانت شقة صغيرة مكونة من غرفة نوم وأخرى للمعيشة. السكون مخيم على المكان، رائحة شوربا الدجاج سيدها الموقف، طاولة صغيرة عليها قطع خبز وصينية شوربا. تجولت ببطء، تركت أشيائها على كرسي بجانب التلفاز، قادت خطواتها لغرفة النوم المكونة من سريرين، أضاءتها " ها أنتِ.. " قالت بهمس. أختها الكبرى تنام على سريرها ممسكة بدفترها القديم الذي قد اكفهرت أوراقه فأصبحت صفراء قديمة. عيناها منتفختان، أزاحت شعرات سوداء مبعثرة على جبين أختها بأناملها الرقيقة، قبلتها بهدوء، ظلت تتأملها وتسرح بين تقاسيمها الفاتنة " حتى وأنتِ غارقة في الحزن، تبقيين جميلة كأميرات فارس في دواوين شعر حافظ الشيرازي " استلقت بدورها على السرير الآخر واخذت تنتقل بين أفكارها.

وفي شرفة مرتفعة كأنما غُلقت في السماء، يجلس شيان حاملاً هديته التي أخذها من ليلك، يتلمسها بيده، يتحسس آثار أناملها. أخيراً قرر النظر فيها، نزع الأغلفة الملفوفة حولها بإحكام. إنها مذكرات قلبها آملاً أن يجد أحرفاً رقيقة تنساب منها لتروي عطشه، فوجد أنها خالية تماماً عدا من جملة واحدة ما زادته إلا حيرة على حيرته.

" قلبك بوصلة حياتك، وهو مفتاح ماضيك ومستقبلك.. "

*

*

*

في صالة الانتظار في عيادة صغيرة تعالج بالطب الأيغوري، تجلس السيدات على الكراسي ينتظرن أدوارهن؛ فساء الأيغور وخاصة المسنات منهنَّ يفضلنَّ التداوي بالطب الأيغوري التركي القديم الذي ورثوه الأيغور الأتراك عن أجدادهم. إذ يركز هذا الطب على العلاج الفزيائي: كالتدليك، والتمارين الرياضية، والحجارة الساخنة، والحجامة وغيرها من

الأمر التي برع بها الأيغور. كما يتم التداوي عن طريق الأعشاب الطبيعية ذات التأثير الفعال. كنَّ يتبادلنَّ أطراف الحديث كعادة النساء في حين يجتمعنَ في مكان واحد.

- " الوضع لا يطاق.." قالت إحدى الشابات الحوامل بضيق صدر " نريد أن نأمن حياة أطفالنا.. نريدهم أن يعيشوا بعيدين عن الاضطهاد الشيوعي.. كل نساء العالم يسعدنَ حين ينجبن أطفالاً... إلا نساء تركستان تبيكينَ أولادهنَ قبل أن يُقدما إلى الحياة..".

تكلمت سيدة مسنة قد تجعد وجهها، كانت شبه ممتدة على كرسي في آخر الصالة. قالت وهي تلهث من التعب وتجتز الكلمات من أقصى حلقها:

- " لو رأيتِ يا ابنتي الجنود المنتشرين في شارعنا اليوم.. يبحثون عن شاب صغير.. آآآوه لو رأيت فؤاد أمه كيف تفطر عليه.. تدعو الله ليل نهار كي يحفظه ويعود إليها سالمًا..".

- " كم يحزنني أمر الفتيات اللاتي يُؤخذنَ بالقوة ليعملن في مصانع الصين.. تجدين الواحدة منهنَّ مثل القمر.." شاركت امرأة أخرى تقف على الباب تعقد يديها أمام صدرها تنتظر ابنتها أن تخرج من غرفة الفحص.

- " والله لا يحرق روحي أكثر من اللاتي يأخذنَ لبيوت الدعارة.. ليتمتع بهن من لا يعرف الله ولا دينه.. كنت أعرف أبًا حدث ذلك لابنته الوحيدة أخذها الجنود الصينيون وهي في سن الرابعة عشرة.. ثم وصلته الأخبار أنها تعمل مغسوبة في بيوت العريضة.. مات والدها بسكتة قلبية من فرط قهره.." ردت سيدة أخرى تجلس قريبة منها:

- " كيف لا يفعل يا أختي؟؟ لا يتصوره عقل ولا يستحمله قلب.. أقلق على ابنتي وهي في غرفة الفحص الآن.. كيف وأنا لا أعلم فوق أي لحاف وتحت أي رجل هي؟؟..".

- " أعود بالله.."، " لا ابتلانا الله.."، " رياه لطفك بنا.." أخذت النساء يتمتمن
باشمئزاز.

خرجت مليكة إليهنَّ في رداثها الأبيض، كانت كملاك رحمة منزل من السماء_ كانت تتدرب على العمل في الطب الأيغوري في عيادة الطيبة خالدة وتجري أبحاثها_ كان صوت السيدات مسموعاً. مليكة لا تحب التشاؤم إلى هذا الحد، لا تحب أن تبدو الحياة سوداوية إلى هذه الدرجة. ابتسمت لهنَّ، سارت باتجاه كرسي شاغر، ثم جلست.

- " أراكنَ سبحتَ بعيداً؟؟.. غرقنَ في بحر أسود.." قالت بتساؤل. ثم عاد الصمت للحظات ثم أردفت مذكرة" الحل في الحياة.. أن نحيا بأعرافنا وديننا رغم أنوفهم. قاومنَ بعاداتكنَ الإسلامية، بتاريخكنَ، بملاحم أجدادكنَ. أنتنَ لستنَ نكرة وُجدت على أرض. أنتنَ من أعرق الأصول، في أطيب الأراضي. أعلمنَ أن الموت سهل للغاية، الحياة أصعب بكثير، إن لم يكن لأجلنا، فلأجل الأجيال التي ستأتي من بعدنا..".

نظرنَ إليها بإكبار؛ فهي لم تكذب في شيء مما قالت، حتى بعض الفتيات اللاتي كنَّ لا يضعنَ الحجاب على شعرهنَّ_ كال كثير من فتيات تركستان فإما يخفنَ من بطش الصينين أو قد ذابت مبادئهنَّ في وحل الشيوعية_ بدى الحرج ظاهراً في وجوههنَّ شعرنَ بأنهنَّ أقل من المقاومة، أقل من أن يحينَ حملات مجد أسلافهنَّ، وشرعية ربهنَّ.

*

*

*

كنتُ في رحلة سفر إلى باكستان؛ فأنا أقوم بزيارتها بشكل دوري إذا لزم الأمر أنا وبعض الشباب الذين أعيش معهم في الجبل كنا نأخذ بعض نسخ المصاحف، وسجادات الصلاة التي لا تباع إطلاقاً في داخل تركستان، بل زد على ذلك أن الصينيين يقومون بحملات دورية يفتشون المنازل ويأخذون

المصاحف، وسجادات الصلاة، وكتب العلم وأي شيء له صلة بالإسلام يأخذونه بالقوة. هذا خلاف ما قد يتعرض له مقتني هذه الأشياء، فالصين معطاة في سنوات السجن التي تفرضها على المسلمين الأيغور كعقوبة. مؤخرًا وضعت السلطات الصينية كاميرات مراقبة في بعض البيوت لتحكم قبضتها أكثر، لتترك عائلات ممزقة، ومجتمعًا تغيصًا، مسلوب الإرادة حتى في أبسط حقوق الاختيار، حتى النساء ما سلمن، فالنساء والفتيات المتحجبات يحصلن على نصيبهن أيضًا من العقوبات القاسية. بينما كنت أنتقل بين المحلات في إسلام آباد حان وقت صلاة الظهر شعرت بنشوة في داخلي وأنا أردد الآذان، أسمع ما حُرمت منه آذان التركستانيين. نحن الذين اخترنا العيش في الجبال نقبض على جمرة الإيمان نسمع الأذان ولكننا لا نملك المعدات المتقدمة من مكبرات صوت تجلجل الآذان، ولا حتى مساجدنا بهذه الضخامة نحن نجعل من بيوتنا مساجد. نكون سعداء جدا حين نحصل على سجاد يغطي أرضية المسجد بالكامل، في حين ينتشر معلمو القرآن والعلوم الشرعية في البلدان الإسلامية، نعيش نحن العوز لمن يلقن أبناءنا آيات القرآن، من يعلمهم ما يجب عليهم القيام به وما لا يجب، وإن وجدوا فإما تراق دمائهم أمام الجميع للعبرة، أو يخفون خلف القضبان، أو يفرون بجلودهم إلى خارج تركستان، وقلة يشتون ويشتهم الله. الشمس ساطعة في هيجان، الشوارع مكتظة، أبواق السيارات عالية، الروائح الزكية تخرج من المطاعم، باعة الحلوى. إسلام آباد نابضة بالحياة. كنت أسير إلى مسجد (شاه فيصل) وهو من أكبر مساجد إسلام آباد إن لم يكن أكبر مساجد باكستان كلها. كان الناس كالسيل ينحرفون إليه. تخلني شعور غامر، هنا لا أحد يضطهدك بسبب هويتك أو عرقك، هنا حيث المسلمون إخوة، الناس بمختلف العرقيات يسرون جنبًا إلى جنب. وأنا على هذا الحال أسير بقلبي أكثر مما أفعّل بقدمي، تحضرني صور الصحابة أبو بكر بجانب بلال، عمر بجانب صهيب، كيف أن الإسلام هو لبنة الأساس، والتقوى هي الميزان، لا

لون ولا شكل ولا عرق يُؤخذ بعين الاعتبار. استوقفتني خطبة الوداع، تحيلته صلى الله عليه وسلم واقفًا شامخًا يخطب في الناس وهم من كل حذب وصوب فيهم الأبيض والأسود والأصفر ينصتون إليه عليه الصلاة والسلام يقول: ((كلكم لآدم وآدم من تراب)) سرى الانشراح في كل جسدي، وصلت إلى باب المسجد اتخذت حيزًا أصلي فيه تحية المسجد، ثم أقيمت الصلاة، امتلأ المسجد بالمصلين، كنا كأسنان المشط، نقف في صفوف منتظمة كالبنيان المرصوص. انتهينا من الصلاة، كان بجاني رجل باكستاني يبدو في الستينات من عمره، شعره أحمر كثيف، لا يلبس البنجاي، كانت عليه بزة رسمية، عرفت فيما بعد أنه كان يعمل في السلك الدبلوماسي. خرجت من المسجد لأكمل عملي، شعرت بيد تشدني إلى الخلف، كان ذلك الرجل الذي صلى بجاني. رائحة عطر فاخر تفوح منه، وشعره مثبت جيدًا، حتى بزته كانت تلمع، نظر إليّ ويده لاتزال ممسكة بمعصمي:

- " أنت من شنجيانج؟؟؟.. "
- " من تركستان.. كاشغر يا سيدي.. " قلتها بعنف بعد أن شعرت بالغثيان حين سمى بلادي بشنجيانج.
- " أنا في صفك.. " همس بالقرب مني. ثم ابتعد عن وجهي قليلًا واكمل: " باكستان لم تعد آمنة لكم كما كانت.. "

لم أفهم قلبت الكلمات لأجد لها معنى.. عجزت، تجعدت شفتي، سكنت الحيرة في وجهي، لم أفهم ما يجول في رأس الرجل تمامًا. ابتسم لي، ضغط على معصمي أكثر، ثم دعاني إلى بيته قال إنه يرغب بالحديث إلي في بعض المسائل. شعرت بالارتياح منه آخر الأمر، صحيح أن تصرفاته كانت غريبة معي في البداية لكنه يبدو رجل خير، فهمت ذلك من السجدة المطبوعة في منتصف جبينه، كما أن وجهه مليء بالرضى، وعيناه فيها صدق واضح.

وصلنا إلى بيت في الشارع الخلفي للمسجد. كانت الأشجار كثة من حوله، فيه حديقة خارجية، مرصوفة بأحجار حمراء، هناك سيارة مرصوفة في الكراج، وطفلين يلعبان الغمبضة. تبعْتُ السيد إلى داخل المنزل، ثم أدخلني غرفة الاستقبال كان كل ما بها يشير إلى أنك في باكستان. طريقة الأثاث، السجاد الملون، أعلى النوافذ زجاج ملون ينعكس على الغرفة، صورة كبيرة بما رسم لنهر السند موضوعة في الحائط الأمامي من الغرفة. بعد وقت يسير عاد الرجل وهو يحمل شاي الفواكه، هذا الشاي نشربه كثيراً في تركستان. نجفف الفواكه ثم نصنع منها شاياً، كما أننا في الغالب لا نظيف السكر. ربما أراد الرجل أن يجعل من هذا الشاي نقطة انطلاق مشتركة في حديثنا.

- " أهلا بك في بيتك.. " ابتسامة عريضة تعلو وجهه.
- " جزاك الله خيراً.. على ضيافتك.. " رددتها بابتسامة مماثلة.
- " هل هناك أمر ما؟؟؟ " وجه سؤاله وهو يصب الشاي في كأس زجاجية متوسطة الحجم. الدخان يتصاعد خارج الكأس، والرغوة تتكون في القاع.
- " ماذا تعني؟؟؟ " بقلق.
- " أعني لماذا أتيت؟؟ " ناوطني كوب الشاي، وأتبعه بملوى الحلقوم التركية. حلوى تصنع من هلام النشأ والسكر.
- " لدي بعض الأعمال هنا.. " أجبت وأنا أتناول منه قطعة حمراء.

نفض من على الأريكة وذهب إلى طاولة فيها بعض الأدراج بجانب مكتبة مليئة بالكتب. بحث هنا وهناك، ثم أخرج ورقة مقطوعة من إحدى الجرائد، عاد وجلس على الأريكة التي أجلس عليها. أراني ورقة منزوعة من صحيفة (ذ نبوشن) الباكستانية التي نشرت تصريح لوزير الدفاع الباكستاني في بكين:

"وجاء فيه أن بلاده قد تمكنت من تصفية واجتثاث كل المقاتلين الإغور المتواجدين على أراضيها من أتباع حركة تركستان الشرقية الإسلامية، بمن فيهم زعيمهم، وأن باكستان

سوف تبقى متيقظة للحيلولة دون عودتهم مجدداً، وأنه لا خلافات إطلاقاً بين بكين وإسلام آباد حول مبدأ التخلص بكل الوسائل من هذه «الآفة» على حد قوله.."

أسودت الدنيا أمامي، شعرت بأنفاسي تتناقل، اختلطت هذه الأحرف والكلمات بمشاعري الجامعة في مسجد شاه فيصل فغلبتها. لم سرقت فرحتي أيها الرجل؟ لم لم تتركني في حلمي الجميل؟ لم لم تترك صورة باكستان ساحرة في مخيلتي؟ ما قيمة الآذان والمصلين؟ ما قيمة الصفوف المتراسة؟ ما قيمة الأجساد المتلاصقة حين تكون القلوب متنافرة؟ «الآفة!!» رددتها بحرقه. من يطالب بحريته في اختيار دينه وعقيدته وممارستها يصبح آفة في نظر هؤلاء! لم أتمالك نفسي بكيت. بكيت بحرقه، بكيت بنفس الحرقه التي بكيت فيها قبل اثنا عشر سنة حينما كان قلبي مازال ينبض، قبل أن يغزوني جليد القلب.

- " عليك أن تغادر.. قد يشكون بك.. أو يوشى بك أحدهم.. حدث هذا للكثيرين الذين يأتون إلى هنا من الأيغور.. حتى الطلبة في الجامعات الباكستانية من الأيغور يرحلون.. " كانت عيناه قد امتلأت بالدموع، شعرت بحرارة مشاعره، لمحت الحزن في لمعة عينيه. كان مناصراً لنا كباقي الشعوب المسلمة، لكن الحكومات لم تفعل في زمن السياسة المبنية على المصالح قبل الأخوة. عذمت على الرحيل، أخذت أغراضي وعدت إلى حيث أنتمي. هذه كانت أطول رحلة عودة من باكستان إلى الجبل.

*

*

*

في الساعة السادسة صباحاً، كان شيان متكوراً على نفسه كجنين في بطن أمه يشد رجليه بمعصميه بقوة، ويضع رأسه على ركبتيه، كان جسده يرتجف، وعيناه محمورتين، لم يستطع النوم بشكل جيد، كان عقله مشوشاً، كان يرى كواييساً طوال الليل في حين غفت عيناه. أخذ المذكرة الموضوععة بجانبه، كان قد سمع من بعض زملائه أن الكتابة أمر جيد في أوقات الضغط النفسي، حاول الإمساك بقلمه، فتح المذكرة استوقفته الجملة المكتوبة بخط ليلك مرة أخرى:

" قلبك بوصلة حياتك، وهو مفتاح ماضيك ومستقبلك...".

كانت ليلك تجفف وجهها في حين سمعت رسالة نصية تصل إلى هاتفها المحمول، سارت لتراها بلامبالاة، أمسكت هاتفها وعيناها لاتزال ناعستان. أمسكتها بإحدى يديها بينما كانت تغلق بالأخرى فمها تمنع نفسها من التثاؤب. توسعت حدقة عينيها وهي تقرأ اسم شيان على شاشة الهاتف " أحتاجك..". ارتدت ملابسها، ربطت جراح يدها بضمادة بيضاء في عجلة ثم خرجت مسرعة، كانت قد جرحت يدها وهي تغسل الأطباق في المقهى الذي تعمل فيه .

كان شيان يبدو منهكًا، قواه تنهالك، عيناه محققتين، محمرتين، يعلو وجهه حزن عميق. ركضت ليلك نحوه قلقة، سألته عن حالته هذه لم يجب.

- " أريد أجوبة لأكون بخير...".

- " شيان.. لا تثقل على نفسك.. لم أقصد أن تصل لهذا الحال...".

كل الكلمات لا تستطيع أن تخفف ألم إنسان لا يعلم ماضيه، يجهل ماهيته وكيانه، يجهل الغاية من وجوده، يعيش فاقداً للهوية. على كرسي في محطة الانتظار قريبة منهما ارتقى شيان. أخبرته ليلك أن عليها أن تأخذه إلى منزلها؛ فأختها ستهتم به، قد يشعره ذلك بالتحسن، لم يكن هناك مجالاً للرفض.

التقى الثلاثة على طاولة واحدة يحتسون الشاي. شيان يتكئ بمعصميه على الطاولة، ليلك تعبت بخصلات شعرها وهي غارقة في التفكير، خاتون تتوشح بقماش أحمر فلا يظهر من شعرها شيء. ترتدي رداء أسود بأكمام طويلة على أطرافه نقوش حمراء تتناسب مع درجة لون الوساح، وجهه مدور كالقمر، وحواجب كأجنحة الصقر تعلو عيناها الشفافتان. الوقار بادٍ عليها، تجلس بقامة مستقيمة تتأمل شيان الذي تملكته الهيبة من هيئتها ففضل أن يلزم الصمت.

- " هل لديك مشكلة؟؟.." نظر إليها الآخرين وحقاً نحوها، كانت خاتون قد بادرت بفتح النقاش.
- " يشعر بعض التيهان.. لديه مشاكل في ماضيه.." أجابت ليلك، حينما تلثم شيان ولم يستطع الرد.
- " ربما هو ذاك.." قالها بحرج.
- " متى يشعر الإنسان بالتيه؟؟.. عندما لا يكون له من يلجأ إليه.. عندما لا يجد قضية مقدسة يعيش من أجلها.. عندما تقتصر أنفاس حياته على أمور حيوانية.. ينطفئ المرء عندما تنطفئ روحانية قلبه.. فكر في هذا الأمر ستجد بغيتك.. لا يهم ما كنت عليه سلفاً.. ما يلزمك هو أن تهتم باللحظة الحاضرة.. وأن تبني مستقبلك على أساس متين.. هذا أيضاً ما أحاول زرعه في ليلك حتى لا تنس من تكون في وسط الحياة المادية البحتة.." خرجت كلماتها بكل هدوء قالتها وهي تشع نوراً، تملأ المكان سكينة، كانت تحتضن بكلماتها قلبيهما.
- شيان يتأمل بعمق، يسمع كلاماً غريباً لأول مرة. هذه الأمور لا تقال هنا في الصين، تملكه الخوف وتخللته الراحة بنفس الوقت، الخوف من الخروج عن المعتاد، لا دار أبيه الفظ ولا المساكن الجامعية التي عاش فيها كانت تحتوي على أشخاص يتكلمون كلاماً روحياً. الروح مهملة جداً في هذا البلد. في الامبراطورية الصينية العريقة عليك أن تبقى تحت القانون ولا تحاول الخروج عنه، أن تفعل ما تؤمر به، وتعيش كيف ما تشاء. لكن خاتون تملك سحراً في كلامها يملئ فجوات القلب، ويضع البلسم على الجرح.
- " كيف يجد الإنسان الروح التي فقدتها؟؟.." وجه سؤاله بصوت حائر، خطف نظرة من خاتون ثم عاد ينظر إلى قبضة يديه المعقودة أمامه.
- " عندما تجد من تدعوه.. من يكون لك ملاذاً في حين تقف أمامك المصاعب.. الامتلاء الروحي في وجود قوة أكبر منك تحميك..".

التفتت خاتون لتنظر إلى شيان وهو يراها بمشاعر مضطربة، كادت تسمع دقات قلبه. كان يمسح قطرات العرق المتناثرة على جبينه بكفه، لم يفكر أبدًا باعتناق دين .. حتى أن أحدًا لم يقترح عليه هذا الاقتراح من قبل. كان الإلحاد هو كل ما عرفه، لم يكن ليهتم لوجود إله يدبر أمره، مرت ذكريات عدة في مخيلته شعر فيها أن هناك من كان يساعده في لطف خفي، هناك قوى فوق بشرية كانت تخرجه من مأزق محتمة. في المرة التي نجى فيها من الغرق في إحدى رحلات المرحلة الابتدائية، كان في حوض كبير للسباحة، قفز إلى الماء بسرعة أصابته نوبة سعال فدخلت قطرات من الماء إلى حلقه، زاد سعاله أكثر وأكثر، المياه تتدفق في أنفه، أصيب بالشرق، حاول أن يستجمع قوته لإدخال الأكسجين إلى رئته التي فقدت كل ما تحمله من هواء، لكن لا فائدة، أنفه وفمه ممتلئان بالماء، خارت قواه في الماء وتراخت أعصابه، حينها كان شيء في داخله يقول " أنقذني.." ثم نجى لأنه أنقذه.

- " روح الإنسان كنافذة تحتاج إلى التنظيف المستمر حتى يدخل إليها الضوء وإلا تصبح بقعة عمياء لا تطاق.." خاتون كانت تجيب استفسار قلبه الذي لم ينطق به بعد أن رأت الحيرة تسكن عينيه.
- " أصعب من أن تكون حيوان أن تكون آلة.. وهذا ما تسعى إليه الشيوعية.. تحويل الناس حتى إلى أدنى من المنزل الحيوانية.." قالت ليلك وهي تشد على الأحرف كأنها تستلذ انتقادها للسياسة الصينية.
- " لن أظل أكثر شيان.. كما أنك متى أردت أن تدلو بدلوك الحزين يمكنك أن تأني إلي.. يسعدني جدًا أن أكون أختًا كبرى لك.." قالتها بابتسامة عذبة غير متكلفة. سبقها صدقها إلى قلب شيان، لم يشعر بمشاعر جميلة كهذه من قبل، دفع العائلة، حضن الأخوة. الروح لا تملؤها قطع الخبز، المشاعر الصادقة تفعل.

بينما خاتون تعد اللغمن بقطع الدجاج، كانت ليلك تُري شيان بعض صور

الاضطهاد في السياسة الشيوعية وكيف أنها ايدولوجية مرتكزة على تزوير المعتقدات والحضارات، تبيد الاختلاف الذي هو سنة من سنن الحياة. ثورات هوجاء ضد الأديان، تُقوّل البشر في قالب واحد تجعل الجميع يسرون وفق قوانين يضعها أشخاص بعقول قاصرة التفكير، ينشؤون الشعوب بعقول تابعة لا تسمع ولا تبصر، والفروع التي تحاول أن تخرج عن مسار هذا السياسة ببساطة تكسر. شعر شيان بانجذاب كبير لأفكار ليلك، انسجم مع كلماتها، وبدأ يصغي إلى شرحها باهتمام، ويلتمس لنواقصه فيها الاكتمال. قاطعتهم أطباق خاتون الشهية، وهي تُرصف أمامهما على الطاولة، كفاصل لذيد، وكما كانت أطباقها لذيدة كانت كلماتها كذلك، حانية ومشركة، تمامًا كإشراق المستقبل الذي تتمناه لهما.

في غمرة من السعادة، يقف شيان على عتبة باب العمارة، بعد يوم متعب مريح، وتتبعه ليلك مودعة إلى الخارج، وقبل أن يرحل التفت إليها وهو يتأهب للخروج .

- " جعلتِ مني أسعد إنسان في الكون هذا اليوم.." قالها متحاشيًا النظر في عينيها.

- " لأجلك ..ألف مرة أخرى.." بصوت مهموس يكاد لا يُسمع.

*

*

*

في ساعة متأخرة من الليل طرق أحدهم منزل السيدة عائشة، كان الوقت غير مناسب لمحبي الزوار. لم يكن الطرق عنيقًا، كان عبارة عن طرقات متفرقة. بعد مدة ليست يسيرة من الزمن وبعد تردد كبير فتحت المرأة باب بيتها بيدين مرتجفتين، كان الخوف مسيطرًا عليها، بدا ظاهراً في نظراتها، ترقبها، تقلب عينيها، في رعشة جسدها، وفي أنفاسها المتلاحقة. إذ أن دوريات الشرطة لا تنفك تأتي بيتها لتفتش عن ابنها الذي أتهم بالتعاون مع مجاهدي تركستان ضد السلطات الصينية وهذه تهمة عواقبها غير محمودة البتة. في العادة دوريات التفتيش لا تتسم باللطافة عند اقتحام البيوت في أي ساعة يأتون فيها من ليلٍ أو نهار، يحدثون جلبة

يسمعا الحي كله، يكسرون الأبواب، يطلقون النار، يدفعون الأجساد، يتقاذفون بالململكات، لكن هذه المرة كان الطارق لطيفا إن لم يكونوا هم فمن سيكون في مثل هذا الوقت؟؟ فتحت المرأة الباب ببطء شديد، وشيئا فشيئا دخل ضوء خافت من إنارة الشارع فانعكست على وجه السيدة عائشة. كانت امرأة بلامح إيغورية أصيلة، عيناها المسحوبتان، وجهها المستدير، كانت هيئتها تحمل سحنة إيغورية إلى النخاع، كانت الخصلات الرمادية المنتثر من شعرها تخرج من وشاحها الأخضر الذي تغطي به رأسها، وتشده من جانبي رأسها ممسكة به أسفل الذقن، كأنها لبسته على عجلة فلم تلفه جيدا، لم يداهما الشيب كثيرا لكنها لم تعد شابة أيضا، خسرت بعض الكيلوهات من الوزن لكنها لاتزال بدينة. عينا المرأة الناعستين كانت تتفحص زائر الليل الذي أقلق مضجعها محاولة التعرف عليه. كان شخصا يرتدي معطفا جلديا أسودا برقبة طويلة، يغلقه بشكل كامل فأخفى به نصف وجهه من الأسفل، كما يرتدي خوذة داكنة اللون تخفي غرته، يكاد يكون الشيء الوحيد المكشوف منه عيناها. تأملته بشيء من الرعب والشغف، لم تخطئه عيناها، رفعت يديها تخفي ثغرها الباسم خلفهما، دموع الفرح قفزت إلى عينيها، كما قفزت هي على ابنها الغائب. وثبت إليه لتحتضنه وتقبله، اعتصرت جسده النحيل بين جنيبيها. لا شيء يطفئ لبيب أم تفتقد ولدها، الأمهات شوقهن مختلف، كما كل شيء فيهن لا يمكن تعويضه. لم تنطق ببنت شفه، استكفت برائحة فلذة كبدها عن كل كلمات العتاب، وتركت سيول عينيها تنسكب في حال سبيلها، كان اللقاء دافئا في لحظات معدودة، لكنها كانت بالنسبة لعبد الحق خواجه وأمه مئات السنين؛ فهكذا هي حال أبناء تركستان الذين لم يخضعوا للتذويب العرقي واختاروا المقاومة على الخنوع وحال أمهاتهم. كأموال البحر ما إن تلتقي بالشاطئ حتى تحتفي، يكفين بلحظات خاطفة بين شهور وسنوات طويلة من القلق والشوق والحنين. بعد أن أرخت السيدة عائشة قبضتها من على عبد الحق أنحنى وقبل يدها و وضعها على جبينه احتراماً وتبجيلاً، ثم وضع قصاصة في باطن كفها وشيئا مربعا ملفوفاً بقماش أسود.

- " لا أستطيع البقاء طويلا يا أمي.." كان يجلس قهوه في صدره، يدفع غصته بأحرفه التي تقاتل لتخرج، ويتحدث بهمس.

- " لم أعد أحتمل يا ولدي.. لنذهب إلى مكان بعيد.. مكان لا يوجد فيه ألم ولا فراق.. " اغرورقت عينيها بالدموع ثم كتبت تأوها بيدها خشية من أن يسمعها أحد " متى سأراك أبا .. ها ؟ أو لا يحق لي ذلك؟؟.. " .
- " يحق وكيف لا يحق؟؟.. لكن لدي بعض الأعمال لأفهيها أولاً.. " .
- " تكلمت مع سليم بشأن مليكة.. سره الأمر كثيراً.. كما أني في كل مرة أراها ينشرح قلبي لها أكثر.. " سرحت عيناها في مستقبل جميل. تخيلت ابنها الوحيد عريساً ترف إليه أجمل البنات وأطيبهن أخلاقاً.
- " ليكن خيراً بإذن الله.. " لم يستطع اخفاء فرحته الغامرة حتى تحت المعطف الجلدي، عانق أمه مجدداً ثم ذهب من حيث أتى.

في الحياة الدنيا لا توجد سعادة سمردية، كما لا يوجد حزن أبدي في عتمات الليل هناك نور خفي، وفي وضوح النهار قد يدب الخطر. أما عن هذه الليلة في كاشغر، فقد اجتمع ظلام الليل وسوء الغدر ليكونا مزيجاً أسوداً في قدر عبد الحق لأمر كان مفعولاً. عندما أصبح الشاب في أطراف المدينة يهيم أن يدخل في غيبته التالية، بعد أن أنجز مهمته، و روى عطش فؤاده من أمه الحزينة، فطمئن واطمأن، وبينما هو يقود مركبته للبعيد لم يشغل باله إلا اللحظة التي نبض قلبه فيها لمليكة، تلك الفتاة القوية، كانا يدرسان في الثانوية نفسها إلى حين نعتتها معلمة تحسب على الحزب الشيوعي الصيني (بالرجعية)؛ لأنها كانت تضع الحجاب على رأسها _ قد كانوا يأتون بالمعلمين والمعلمات من هذه الشاكلة للتعليم في تركستان بهدف تغيير مفاهيم أبنائها وثنيتهم عن دينهم وأعرافهم أو لما يسموه بالتوعية العامة لمقاطعة (شنغيانغ) _ عاد يتذكر نظراتها الحادة، عنادها، قوتها أمام تهديد المعلمة لها، رغم أنها ذاقت الويل نتيجة وقوفها ضد الطوفان الشيوعي بجرأة مما حرمها إكمال تعليمها النظامي، فاضطرت أن تتجه إلى الطب الأيغوري الذي يدرسه أطباء أيغوريون في معاهد خاصة. مر عليه طيفها، ملامحها الغاضبة، صوتها المرفوع كالموج الهادر أمام تلك المعلمة:

- " اذهبي إلى أرضك وتحكمي ببنات بلدك.. هنا تركستان أرض إسلامية شئت أم أبيت.. "

تداخل صوت الرصاص مع صوت مليكة في مخيلته، فجأة أخذت السيارة تبطاء أكثر فأكثر حتى توقفت. الليل لا يزال خميماً لم يستطع أن يرى شيئاً إلا ضوء قوياً أت من سيارات تابعة للسلطات الصينية تسير خلفه مباشرة، يبدو أنهم قد أطلقوا عدة رصاصات على إطارات السيارة لذلك توقفت. كان الرعب قاتلاً، تجمد عبد الحق في مكانه، فلا حيلة لديه كما أنه لم يعد يستطيع إبراز هويته المزيفة، لأن أمره قد انكشف وهذا لن يزيده إلا وبالاً. كان قد تجنب الدخول إلى منزل والدته خوفاً من الكاميرات المركبة في كل اتجاه منه، لكنه كان غافلاً عن احتمالية وجود أعين للتجسس في الخارج؛ فالذين يبيعون أنفسهم برغميبات (1) معدودة كثر، قد تمتلأ بها جيوبهم لكن أرواحهم لا تزيد إلا فقراً وذلة. خرج عدد لا بأس به من رجال الأمن من سياراتهم ليحاصروا عبد الحق الذي لم يحرك ساكناً واكتفى بالتفوق على نفسه، لم يكن هناك متسع لردة فعل يقوم بها لينجو إلا قليلاً من المقاومة التي لم تغن ولم تسمن من جوع. كبلوا يديه بعنف، و وضعوا لجاماً على فمه ثم غلفوا رأسه كاملاً بكيس قماشي، كل هذا وعصيتهم تهوي على ظهره وأجزاء مختلفة من جسده، وأفواههم مليئة بالضحكات الساخرة، والالفاظ البذيئة. كان الألم لا يطاق لكنه كان أشبه بمكسرات العيد بالنسبة لما سيراه لاحقاً. سارت به إحدى السيارات طويلاً، كانت لحظة اعتقاله خاطفة؛ فلم يستطع أن يفكر في طريقة للخلاص، أو أن يجد اتجاه أو مدة الطريق الذي يسير فيه، ثم اختفت السيارة التي تقله إلى المجهول والسيارات الأخرى تتبعها في الظلام الدامس.

انقضى الليل بما فيه، فالشمس لا تغيب لألم أحد، ولا تضرب عن الإشراق تضامناً مع حزن أحد، العالم يسير بعجلته إلى الأمام كعادته. نهضت مليكة بنشاطها المعتاد، برغبتها الجامحة في العطاء، وكالعصافير حين تخرج من عشها محبة للحياة خرجت مليكة بحماس ليوم جديد، في طريقها لعيادة الدكتورة خالدة للطب الأيغوري التي تقوم بالتدرب فيه. سارت بين الأزقة حتى

شد انتباهها ثلاثة شبان يتحدثون في زقاق من أزقة الحي الذي تقطنه، لم تستطع أن تراهم لكن بعض كلمات من حديثهم اخترقت أذنيها، كان أحدهم سيد الحدث، كان صوته منتشياً يتحدث قليلاً ثم يصمت برهة، يرشف رشفة عميقة من سيجارته المحوطة بأصبعه الإبهام، ويكمل وهو يتأرجح من الضحك، كلماته متقطعة، والآخرون يبادلونه الضحكات الساخرة، كان ما لفت انتباهها بعض الكلمات المتقطعة التي شعرت بأنها تشير لأمر ما قد حدث.

- " يظن نفسه بطلاً.. عقابه.. عبدالحق خواجه.. مسكين.. يستحق.. ضد التيار.. لا تستطيع.."

غزمتها الهواجس من كل حذب وصوب، ظلت عينا الفتاة متسعتان، قلبها يكاد يقع على الأرض، يدها تتحسس حنجرتها التي أصبحت كقطعة خشب نالفة، كل الهواء الذي في صدرها تحجر، صارت تسير بخطى ثقيلة وبطيئة إلى منزل السيدة عائشة، شيئاً في داخلها ينذر بالخطر وآخر يخبرها بأنها مخطئة " أنها مجرد أحاديث بين شبان لا معنى لها.. لا شيء يدعو للقلق.. " كانت تطمئن نفسها، وعلى هذا النحو سارت حتى وصلت لمنزل بطابقين مطلي باللون الأخضر، تبارك كثيراً بهذا اللون السيدة عائشة تقول أنه لون الجنة. طرقت مليكة الباب لكنها لم تكد ترفع يدها من الطريقة الأولى إلا وقد فُتح الباب، كان وجه السيدة عائشة مشرقاً أكثر من عادته، فتحت الباب على مصراعيه كأن مليكة كانت ضيفاً منتظراً، احتضنتها بحنان وقبلت وجنتيها.

- " كنت سآتي للعيادة اليوم لأراك.. يقولون القلوب تشعر ببعضها.. " كانت متحمسة كثيراً للحديث على عكس التي تأكل الأفكار السوداء قلبها، كانت تبتسم بابتسامة باهتة لا لون لها، محاولة أن تكون على طبيعتها ولا تثير شك المرأة المسكينة فتفسد فرحتها قبل أن تثبت من الأمر.

- " آه مليكتي لم أخبرك.. خمني من جاء لزيارتي البارحة؟؟.. " ثم شعرت بأنها قد تعجلت فالكاميرات تطرز منزلها_ هكذا جميع بيوت العائلات التي يشكون في

أحد أفرادها يرغموهم على وضع كاميرات المراقبة، يقتحمون حرمة البيوت وخصوصيات الحياة الشخصية_ فاكنتف بالصمت وقدمت إليها قصاصة ورقية صغيرة كانت مهترئة تدل على رحلة طويلة لحاملها، فهمت مليكة أن عبد الحق كان هنا ليلة البارحة وأنه أعطى والدته هذه الرسالة، فأمه لا تستطيع القراءة فلن تكون لأحد سواها. دستها في جيبها، ثم أخذت القماش الملفوف، وبجلبتها وفطنة عقلها تخلصت من السيدة عائشة دون أن تخبرها بشيء، خرجت بعدها إلى طريقها. كانت شمس الصباح الساطعة تداعب عيناها، تحاول أن تسترضيها، وتواسيها في مصابها، ثم توقفت قليلاً أخرجت القصاصة المدسوسة في جيبها:

" اخبروا حوريتي بأني بها على لقاء..

وأن جسر الأمنيات سيسمح بالوصل..

فإما معاً على طريق الجهاد..

وإما شرباً من كأس الشهادة..

(ع. ح)

اختلطت المشاعر في قلبها، فجزء من السعادة أتت مع القماش الأسود، والكثير منها ذهب مع عبدالحق، صمتت فأحياناً تضعي الكلمات في غياهب المواقف العظيمة، والصمت أمام قداسة الكلمات وأصدق الكلام، فالقلوب تفهم بعضها، وصدق المشاعر فوق المساحات الشاسعة، فوق المكان والمادة، وأمور الروح لا تدرك، كما الروح من أمر ربها.

الفصل الرابع

الشمس ساطعة، والرمال ساكنة، في صحراء (تاكلامكان) خارج (توهان) غرب الصين، حيث الصمت المطبق، المنطقة خالية تمامًا من أي مظهر عمراني سوى من مبنى ضخم مهيب في المنتصف، عليه كتابات باللغة الصينية مكتوبة باللون الأحمر ترسيخًا لمبادئ الإمبراطورية الحمراء فالصين وإن كانت جمهورية إلا أنها لم تتخلى عن سيطرة الإمبراطوريات وأساليبها العتيقة. أسلاك شائكة كثيفة تكوّن سياجًا ضخماً يحيط بالمبنى، تحاول الكتيبان الرملية أن تداعبه بذراتها لكن هيهات للصخور القاسية أن تتلاطف. التناقض يولد من هنا، الداخل والخارج، الضوء والظلام، الصمت والصراخ، الكلام والأفعال. هذا المكان عبارة عن أكبر إنتاجات الصين قساوة، هنا يدخل الناس بشرًا ويخرجون أشباه كائنات، إنه معسكر (ماجور)، تحتجز الصين فيه مئات الأويغوريين وما هو إلا واحد من مئات المعسكرات السرية في أوساط الفيافي المنسية، الناس فيه ليسوا أكثر من مادة خام في مصنع كبير، يصهرّون، ثم يُوضعون في قوالب، ثم ينتجون كما يريد المنتج، يأخذون دروسًا مكثفة في القانون واللغة الصينية يعلمون الولاء للحزب الحاكم الشيوعي، يرددون الأغاني المجلّلة للسياسة الصينية، يكتبون مقالات النقد الذاتي، يتناولون على دين الإسلام الذي هو دينهم وأي موروث له صلة بالعرقية الإيغورية بأقبح الألفاظ وأساء الأوصاف. هنا لا تغسل الأدمغة فقط بل تغسل الأرواح من الإنسانية، هنا لا يولد الحيوان بل تستأصل آثار الحياة حتى لا يكون الجسد أكثر من آلة.

في غرفة صغيرة مظلمة، درجة الرطوبة فيها عالية، في منتصفها كرسي من أخشاب متعفنة أكلت منها دابة الأرض فأصبحت مليئةً بالثقوب، يجلس عليها عبد الحق مكبل الأيدي والأرجل، معصوب العينين، وخوف موغل في أعماقه، حول عنقه حبل موصول بكتلة صخرية تجبره على أن يكون منحنيًا إلى الأسفل، مما يسبب له ألمًا شديدًا في عموده الفقري. ظل كذلك زمنًا لم يحصيه، إلى أن شرف اثنين من العساكر لضيافته، فتح أحدهم عقدة الحبل الذي في عنقه، وجعلاه يمشي وهو يترنح من ألم ظهره إلى غرفة في آخر الممر، كانا يدفعانه دفعًا للأمام كي يتحرك. حين وطئت أقدامهم غرفة التحقيق، نزع الذي على اليمين العصبة من عينيه، كان

الضوء أكبر من أن تتحمله عيناه، فهو لم يعرف النور ليومين كاملين، كان ضوء الغرفة ساطعاً جداً خلاف ذلك وضع على كرسي أمام طاولة بها أجهزة إضاءة توجه إلى وجه السجين كنوع من التعذيب. كان الوهج فوق مستوى التحمل، أغمض عينيه لكنه فتحهما بذعر حين باغته صفة على وجهه من رجل يجلس خلف الطاولة، كان رجلاً بدينًا بوجه قاسٍ، يلبس بزة عسكرية خضراء، شعره أسود لامع، مسرح إلى الخلف، كانت عيناه مليئتين بالحبث، تعلوه ابتسامة صفراء تنم عن المكر.

- " عبدالحق.. شيفرة الإرهاب.." كانت عيناه الضيقتين تتفحص وجه الشاب حتى أنها تكاد تخترقه " الشاب البطل.. الذي ظلت السلطات الصينية تنقب الأرض لتجده طوال أربع سنوات.. يجلس أمامي.. عمزت كل تقنيات المراقبة الصينية عن الإتيان بك.. لكن " وبدا يضحك ساخرًا، ملئت الغرفة بصدى ضحكاته " أصدقاء الطفولة أتوا بك في أقل من ساعة" وعاود نوبة أخرى من الصراخ. كان قلب عبدالحق يخفق بقوة، لم يفهم القصة هو هنا على أي حال، من أتى به هذا أمر لا يهم، النتائج واحدة في الأخير.

- " نحن لن نعاملك كأبي نزيل هنا.. نود أن نعرض عليك صفقة.. تعطينا أسماء الذين كنت تعمل لديهم.. تستجيب لدروس المخيم التوعوي.. تكتب تعهد بالولاء للأمة الصينية.. ثم تذهب إلى حضن والدتك الدافئ ما رأيك؟؟ " كان يجلس معتدلاً على كرسيه، ينظر باتجاه عبد الحق الذي أحرقته الإضاءات الموجهة نحوه، كانت دموعه تسيل تحت تأثيرها، ثم بحركة من يده على زر بجانبه، أطفئ الإضاءات " هكذا أريح.. " وأخذ يقدم بيده ورقة عليها قلم لعبدالحق، الذي كان صامتاً طوال الوقت، لكن عقله يكاد ينفجر من الأفكار المتسارعة التي تنهال على خلايا رأسه. مرت صور كثيرة في مخيلته، القائد مسلم باتور، سليمان كتشاري، الشيخ يحيى خان، تذكر الكوخ القريب من أقسو ، دار الشيخ أبو محمد، تناثرت الأسماء أمام عينيه، ثم نفص رأسه بعنف، وأخذ يلم

أفكاره. تذكر صوت القائد مسلم في أول لقاء له به، حين عنّفه الشيخ على استعجاله في استجلاب النصر، وأخذ يردد آخر آية في سورة العنكبوت ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)).

- " أُلن تكتب؟؟.." كانت نبرته مهددة أكثر من كونها استفسارية، ثم أشار بيده للأعلى، لم ينته من رفعها حتى باشر الإثنين الواقفان عن يمين وشمال عبد الحق بتقديم ترحيب حار للنزيل الجديد، كان ترحيبًا مليئًا بالدم، كانت العصي الحديدية تهوي على جسده بقوة، فترتد العصي بمفردها للأعلى بفعل الارتطام، وعروق الشاب تحولت إلى امتدادات قلب، كانت تنبض بشكل هستيري. كانت لحظة سريلية بالنسبة لعبد الحق، العرق يقطر من كل خليه في جسده، الدم يتناثر من حوله مع كل ضربة، حتى صرخاته كانت متقطعة كان الموقف أكبر من أن يعاش. بعد أن قبض البدين كفه المبسوطة في الهواء، عاد العسكريان إلى وقفتهما السابقة.

- " هذه كانت تعليمات النزول .. أيها الضيف.." ببرود شديد، حتى أنه كان يتثأب؛ فالجلسة لم تثر حماسه على ما يبدو. لملم بعض أوراقه، وأمر بإعادة عبد الحق، وهو عبارة عن كومة من اللحم الممزق.

في زنزانة صغيرة، ينكمش عبد الحق على نفسه، جسده مليء بالأخاديد التي يجري الدم فيها، اختلط شعره بدماء نازفة من رأسه، تحجرت حتى أصبح رأسه كالقنفذ. في عينه رجاء أخرس، وفي طرف الزنزانة شجرة تنعكس في أحداق هذا الرجاء. هنا لا تسير الأمور بانسيابيتها المعتادة، الوقت يمضي ولا يمضي، أكانت هذه نفحة من نفحات الجحيم؟ حاول أن يسكن من روعته قليلًا، أغمض عينيه، وغط في غفوة صغيرة. أصوات اصطكاك قوية أرجعته من غفوته التي لم تكن إلا انعكاسًا لواقعه، عصي، دماء، بكاء، أنين، فتح الباب عليه ثلاثة عساكر.

- " تحقيق.." صرخ في وجه عبد الحق فنفض آثار النوم من عينيه.

وساروا به إلى غرف ذلك البدن مجدداً، كانت رجله تسير إلى الأمام أما قلبه فقد كان يغوص في جوفه يأمل بحدوث معجز تنقذه. هذه المرة رصف المحقق أدوات غريبة على الطاولة، مقص، ساطور، عصي ملتوية، أمور لا يعرفها الناس خارج حدود المعسكرات التأهيلية. تأهيل في ماذا؟؟ في التجرد من الإنسانية. حتى الكرسي كان مختلفاً به أيدي على الجانبين، أُجلسَ على الكرسي، حاول تحاشي النظر في عين البدن، ظل ينظر إلى رجله.

- " هل فكرت جيداً بالعرض؟؟.." "كان يقلب كماشة بيده.
- " نعم.." بصوت متعب.
- " إذا؟؟.." " كان قد ترك الكماشة في مكانها، وركز النظر في عبد الحق، يريد أن يحقق جولة أخرى من الانتصار، يقهر إنساناً، يرغمه على الاعتراف بما لا يريد، كم تكون هذه اللحظات لذيدة في حياة الساديين.
- " أنا لا أخون ما أوّمن به.. ما أنتمي إليه.. إن أفنيت روحي أو حتى أرواح الآلاف منا .. لنعلم أنه لا أحد يستطيع أن يمسح بلد بمساحة 1.800 مليون كم2.." " كانت أنفاسه تتقطع، كان يشد على يديه حتى تجرحت بسبب الأغلال الحديدية الضيقة. ربما سينسى أثره، وتنتهي أيامه، وتندثر أخباره. ربما لن يعلم أحد ما حل به، ما عاناه، لكنه لن يسمح لنفسه أن تفارقه وهو خائن. على الأقل لتكن هذه الكلمات في وجه الضابط المظلم شرفاً يلقي بها والده الذي لا يتذكره، ولا يعرف عنه إلا أنه كان بطلاً شامخاً أذاق العدو مرارة العلقم، إلى أن أحرق حياً لمناهضته للاحتلال الصيني. كانت الأخاديد تشعل في القرى ليلقى فيها كل من ييدي اعتراضاً أو رأياً مخالفاً لسياسة الاحتلال الإلحادية، لم يختلف أسلوب الصينيين كثيراً من وسائل تعذيبهم فقط. لم يحمل ضابط انكسار أنفته من شخص لا يملك حتى سلامة روحه، ضحك ضحكة هستيرية مجنونة، تنم عن نزعة عدائية حيوانية، أخذ كماشته بحركة خاطفة، ونهض كثور هائج

باتجاه عبد الحق الذي أغمض عينيه، وأخذ يرتل ما يحفظه من آيات، أخذ العساكر يفتحون أغلاله ويربطون يديه على أيدي الكرسي، اضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه، ارتعش كل عضو في جسده، تملكته رهبة عارمة. بعد أن وضبه العسكر لحفلة صراخ جديدة، بدأ أكبرهم بنزع أظافره وأحدًا تلو الآخر، لم يسأله أو يكلمه في قضية معينة، تلك الجلسة التعذيبية لم تكن لنزع اعترافات أو ما شابه، كانت جلسته مفادها الأول والأخير كسر أنفة، انتقام ذاتي، تعديل مزاج. كان الشاب بين يديه يتأوه بأصوات متفاوتة، كادت حباله الصوتية أن تنقطع، وكل ما حوله في صمت تام، كأنه في عالم وما حوله في عالم مختلف تمامًا. أراد أن يرتشف قطرات من الماء. أويرجى الماء في صحراء قاحلة؟ فرغ السادي من عمله بعد أن أتمه على أكمل وجه. ظن عبد الحق أنه سيعود إلى جحر الفأر ذاك لكنه كجنة عرضها السماوات والأرض، مقارنة من زفرات الجحيم في هذه الغرفة، أما ظنه فقد كان خائبًا.

- "هل عرفت من يمحو من أيها الكائن الحقير؟؟..." كان يتصبب جبينه عرقًا، كان عمله شاقًا أظافر عبد الحق عنيدة مثله، ليست لقمة سائغة، كانت قوية كإصراره لا تُنتزع بسهولة "البقاء للأقوى.. نحن الذين نعلمكم كيف تعيشون.. جئنا كي نعلمكم الحضارة.. لكنكم بماذا قابلتمونا؟؟.. بالهمجية.. أنتم عبارة عن برابرة سذج.. لا تستحقون الحياة.. لماذا أوجدتكم الطبيعة.. لتعرقلوا سير التقدم؟؟..." كان لعبابه كما كلماته يتطاير هنا وهناك، الزيد متراكم في أطراف فمه، دماء عبدالحق متناثرة على بزته الخضراء، ويده ملطختان بشكل تام، كان في أقرب صوره قد تشاهد بها شبه مسخ في حياته. لم ينطق عبدالحق، كأنه رأى الرد على التفاهة تفاهة أكبر منها، اكتفى بما يشبه الابتسامة الساخرة، رفع الراوية اليسرى من ثغره كأقصى ردة فعل يستحقها جلاده، تميز غيظ ذلك الآخر، أخذ بإشعال شيء معدني يشبه القضيب يخرج من فوهته نار، وبدأ يشو الجروح في منابت الأظفار التي نزعته، كان الدم حين تصل إليه النار يصدر

فرقة كبيرة، وأخذت رائحة الشواظ تحول في الأنحاء، بح صوت عبد الحق من الصراخ حتى استسلم لإغماء طويلة لم يستيقظ منها لوقت طويل.

*

*

*

في مكتبة دائرية الشكل، كتب متطاولة بعضها فوق بعض كأنها جدران ورقية تكون سدًا عظيمًا، شتلات صغيرة متناثرة في أرجاء مختلفة من المكتبة، الخواء هو فقط ما يمكن سماعه إضافة إلى نقيق مهموس لأجهزة الكشف عن الكتب، الناس يتحركون بصمت، يأخذون الكتب، يجلسون على الطاولات. ليك تحوم كالنحلة، تُدون المعلومات، ترصد أسماء الكتب، شيان الآخر بدأ يأخذ منحى جديدًا، يتبع تعليمات ليك، يبحث في المجلات القديمة، أسماء المعارضين للحزب الحاكم الذين لقوا عقابهم. ربما لم تكتمل الفكرة في مخيلته تمامًا كما هي في عقل شريكته إلا أنه يبلي حسنًا. ساعتان متواصلتان من البحث والتدوين، خرج الشابان بقدر لا بأس به من العمل.

- " هذا جيد اليوم.. شيان .. لكن يجب أن نسرع أكثر.." كانت تمشي بجانبه خروجًا من المكتبة الكبرى " لكن سيبقى العمل القادم عليك.. سأعتمد عليك كمصدر للمعلومات.. أريدك أن تسافر لتحضر لي إياها.. "
- " ماذا؟ لماذا ؟ أقصد إلى أين؟؟ .. لم أفهم!!.. "
- " اليوم سأشرح لك الأمر.. لكن. " داهمتها رعشة خوف بعد تنهيدة مباغته.
- " لكن ماذا؟؟.. "
- " لا بد أن تؤمن بالقضية حتى تعمل لأجلها.. وتتحمل العناء في سبيلها.. يتشربها فؤادك فلا يُحيدك عنها شيء.. "

- " لا أدري عما تتحدثين .. ليلك .. لكن أنا هنا لأكون معكِ .. في صفكِ .. بجانبكِ .. " قال مطمئنًا بعد أن شعر بهواجس عقلها تعبت في داخلها، يعلم ذلك من بريق عينيها. في الحقيقة لبريق العينين لغة فوق النطق والأحرف.
- " ما أريده أكثر من إيمانكِ بي .. " .
- " ليكن ذلك إذًا .. " صاحبها بابتسامة.

على نهر (بيون) الأشجار منتشرة من حوله، الأرض رطبة من تحت الأقدام، درجة الحرارة مرتفعة قليلاً، الأطفال يلعبون، بعض العوائل تشوي السمك، البنايات مرتفعة، في الشوارع الرئيسية من النهر. تجلس ليلك بجانب شيان يأكلان بعض الفطائر التي أعدها خاتون صباحاً.

- " لذيذ هو طبخ أختكِ.. أنتِ محظوظة.. " كان يأكل فطيرة محشوة بالجبنه والخضروات، يأكلها بتلذذ.
- " لم تذق شيئًا بعد.. كانت أُمِّي أيضًا طاهية ممتازة.. " ذكر والدتها قد هيج مشاعرها بعض الشيء.
- " أنا حتى لا أتذكر كيف كان طبخها.. لا أتذكرها.. في المرة التي سألت أبي عنها رد عليّ بصفعة كدت أن أصم بعدها.. ظل وجهي منتفخًا مدة طويلة.. "
- امتلاأت عينا شيان بالدموع، ما إن يتذكر والده حتى تظلل غمامة سوداء على قلبه، والده غريب الأطوار " أتدلين أحيانًا كنت أستشعر أبي في سجن وليس في منزلي.. كان أبي غنيًا، كان ضخيم الهيئة، كانت لدينا خادمة عجوز كانت ترأف بي، حين علم أبي أنني سألتها عن والدتي إن كانت تعلم كيف ماتت؟؟ أو حتى ما تحبه من الأطعمة؟ كنت أحاول أن ألتمس ولو أثرًا بسيطًا عن حياة والدتي.. أو حتى عن موتها.. أي شيء عنها كان سيكفييني.. كلما حاولت جافاني أبي أكثر حتى أنه أرسل الخادمة التي كانت تقوم بأمور المنزل إلى قريتها أخرجها من بكين بالكامل تخيلي ذلك.. كانت الشخص الوحيد الذي أحببته وأحبنى في هذه

الحياة.. عندما كان يثور جنون أبي فيبدأ بضربي كانت تحنو علي.. أحياناً كانت تبكي حزناً علي.. عندما عادت بقيت بمفردي.. آكل بمفردي.. أتجول في منزلنا الكبير.. أَلعب في الحديقة الخلفية.. لم يسمح لي أبي بأن أجلب أصدقائي للمنزل.. عندما مات لم أشعر بالحزن عليه ترك لي مالا كثيراً.. كنت قد تصادقت مع جيو كان يشعر بي دون كلام.. كان صديقي المفضل منذ كنا صغاراً.. صادرت السلطات الصينية منزلنا بحجة أنها لم تكن من الممتلكات الخاصة بل ملك للدولة.. لم أحزن كثيراً.. انتقلت لأعيش مع جيو.. تنقلنا في مساكن كثيرة.. كنت أعمل في الاجازات.. أعرف كيف أجدر المال.. انحنى برأسه للأسفل، تجعدت شفتاه، أسدل جفنيه" شاب تعس بائس أنا .. لكني أعرف السعادة عندما أرى عيناك فقط..".

- " أين وصلنا في موضوع سفرك؟؟؟" كان صوتها يرتجف، يداها ترتعشان، تركت الفطيرة من يدها، أعادتها للسلة الخشبية الصغيرة الموضوعة جانبها. كانت تهرب بنظراتها بعيداً، تحاول استجماع نفسها.

- " إلى أين يجب أن أذهب؟؟؟".

- " إلى شنجيانج..".

- " إلى البربر.. الهمج.. لماذا؟؟؟" قال باستنكار، استقر نظره عليها" كان أبي يحذرنني من أن أعرف على أحد منهم.. في ليلة شتوية .. كان أبي يستمع إلى الأخبار.. في نهار ذلك اليوم قتلت السلطات بعض الأفراد من إقليم شنجيانج.. أبي قال عندها بأنهم لا يستحقون الحياة.. لا أعرف عنهم شيء أكثر من هذا".

- " نحن في زمن يصبح الضحية هو الجاني.. والجاني هو الضحية.. " احمرَّ وجهها غضباً، ثم أردفت بجديّة " ستذهب إلى شنجيانج.. سترى ما لا تعرفه.. القتل.. الاستبداد.. التطهير العرقي.. عندها ستعود إلي وتخبرني برأيك.. بعدها ستسافر إلى بلد آخر لتقابل بعض الأشخاص.. وستعود مجدداً.. بذلك ننهي مشروعنا

بهدف إنساني سامي.. عن قصة الإنسانية المسلوقة.. في حكم الإمبراطورية الحمراء.. " زفرت بقوة، أخرجت هواء حارًا من أعماقها، لا ينم إلا على حريق يشب في أحشائها " ستنسى من تكون وأنت تقوم بالبحث.. ستنتظر بعين الإنسان.. ستفكر بعقل الحايده.. مفهوم؟؟..." كان عزمها قد كَوَّن درعًا حديدًا على وجهها، كانت ملامحها كجندي عطش للظفر، كفارس يستعد لخوض معركة، كانت ليلك تتحزم بإصرار ناسف لا يمكن ردعه.

- " ستكون مغامرة جيدة.. شيء لم أقم به من قبل.. لتعلمي أيتها الأنسة أني لا أدخل شيئًا إلا وأنجح فيه.. ثقي بي.. كما أني أستطيع تدير التكاليف.. كوني مرتاحة..".

- " إذاً ستذهب إلى هناك في أسرع وقت ممكن.. ستكون سائحًا.. لن تتصل بي أبدًا وخاصة من شنجانج وستتحرى بنفسك..".

- " تم..". قالها بروح التحدي، ربما رغبته في إثبات ذاته أمامها كان أكبر من رغبته في النجاح، نبهه لاهتمامهما كأكثر درجة قد يتحصلها في حياته، لكن المفاهيم لا تبقى على حالها، حتى قمم الجبال تتغير تحت عوامل التعرية، والقناعات تتغير تحت تجلي الحقائق.

*

*

*

ينفذ الليل إلى السماء أسود الجبين، تزينه أنوار منتشرة على كافة بيوت الجبل توحى لناظرها بالأنس، تدل على يوم استثنائي يعيشه سكان الجبل الكبير. جلبة عالية، أطفال يترقبون متى توزع الحلوى، أهانج تردد، وطبول تفرع، تبريكات تتناثر، شبان يتهايمسون، موائد تمد، وضحكات تتبادل. كنتُ على رأس المشرفين، أرحب بالضيوف، وأرشدهم إلى حيث يجلسون، ثم يأتي الغلمان ويقدمون الطعام، البعض يأتي وفي يده هدية آخذها منه وأضعها في غرفة العريس. كان سليمان منتفحًا من الفرح، عيناه تتلألآن، يعلوها بريق السعادة، كان يرتدي لباسًا إسلاميًا ثوبًا أبيضًا

يستقيم عليه في ثبات لا تجد فيه ثنية، رأسه ملفوف بعمامة بيضاء ناصعة، كان حفل زفاف بسيط، من قال أن السعادة مقترنة بالبهجة؟ بالترف؟ السعادة هي أن تكون حيث تحب مع من تحب. كم من أصحاب القصور المشيدة تُعَساء، وكم من أكواخ صغيرة تترف قلوب أصحابها في السماء فرحًا وسرورًا. المواقف الصغيرة من الأحباب عبارة عن جرعات سعادة تحصدتها العمر كله، حتى إن اختفوا يبقى أثرهم منقوشًا على الحجر، في رأيي الإنسان هو السعادة والتعاسة متى أراد ذلك. لا أدر كيف باغني طيف حوريتي، سبحت طويلاً في ملامحها، في شعرها الفاحم، جناح الصقر في جبينها، عينها الفاتحان، ابتسامتها الساحرة، كنا شابين في عمر الزهور. كنت أتعذر للذهاب إلى منزل خالتي لأراها، أفنعل المواقف لتحدثني. حين كُتب قرانا كانت مثل لؤلؤة مكنونة، تسدل على وجهها قماشة بيضاء، عاودني الشعور بالخرج كأول مرة أخبرتها فيها بأني أحبها، حينها توردت وجنتيها، لم ننطق بعدها، كانت الأعين خير متحدث، والصمت خير شارح، ربما كنت وسيماً بشامة صغيرة بين ذقني وشفتي السفلى من جهة اليمين. كانت تقول لي لو أضعتك يوماً سأعرفك من خلالها، أنا الذي أضعتها بعد هذا ولم تترك لي دليلاً أجدها به، والآن بعد أن أكل الهم شبابي لم أعد أفكر سوى بطرد هذا المحتل البغيض، أن أردّ اعتبار شرفي الذي مُزق، أن أنتقم لحوريتي الحبيبة، تكورت الدموع في مقلتي، كان يجب أن لا أفكر بهذا الأمر. ذهبت راکضاً لأشارك صديقي فرحته، سليمان الذي اعتنيت به كأخي الأصغر، كنت أعوض فيه شعور أخي الذي فقدته عندما كان في الرابعة. عندما صارحني سليمان بأنه يريد الزواج، انفرجت أساري بي بعد غم الخذلان الذي تلقينته في سفري إلى باكستان، كنت أرى السعادة في عيون الشبان الذين في مستقبل العمر عندما يقررون أن يبنوا حياة جديدة، كنت أرى في بيوهم الصغيرة الوليدة ولادة جديدة لتركستان. أرى في أبنائهم علماء، وأطباء، ومهندسين، أرى نوابغ يأخذون بوطننا الجريح إلى الغلا. سُرت جداً بهذا القرار، وسعيت فوراً لإتمامه على خير يعون من الله.

علت الزغاريد، النساء يتجمعن أمام منزل الشيخ يحيى خان الذي حمل على عاتقه مسؤولية حُسنة، يصفقن ويشعرن لها، شابات يركض إليها يباركن لها، يقذفنها بالورود، تتسلم الهدايا ابنة الشيخ يحيى، أجواء تنشرح لها الأرواح. دخل سليمان في موكب إلى المسجد، كما أدخلت حُسنة التي لا يرى منها شيء، تسير كعمامة بيضاء. أخذ الشaban يجلس أمام الشيخ يحيى الذي تنحى ثم ابتدأ قائلاً:

- " ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا))، الحمد لله الذي أنعم علينا بالأنس إلى أرواح خلقت منا، عندما خلق الله آدم لم يخلق له صديقاً أو أخاً، بل خلق من ضلعه امرأة يسكن إليها، يأنس وحشته بها، تداوي جراحاته، وتتعهد آلامه. هي بضع منه وهو وطن لها، فيكونان بذرة الحب الأولى للأسرة المسلمة، فتنبت شجرة طيبة مباركة هما فأسها ومعولها، هما سمادها وريها، هما الحارسان المخلصان لها، بهذا يزهر المجتمع، فيكون متيناً، قوياً متماسكاً. فطوبى لسليمان بحُسنة وطوبى لها به، وطوبى لنا بشعبنا الأيغوري العريق، الذي له تاريخ أصيل. هذا البلد الذي فتح في زمن الخليفة عثمان رضي الله عنه، على يد القائد مسلم الباهلي، تسلمنا دعوة الإسلام وآمنا بها وعملنا بها، وحُوربنا أشد الحرب، من المغول قديماً، والروس والصينيين اليوم الذين يجرعوننا كؤوس الموت في كل ثانية ولحظة من أجلها، لكن هيهات أن ننسى من نحن. أيها العرق التركي الطيب الذي عشق الإسلام، وثبت عليه، وتفاى في حبه، أنتم بهذا الزواج تعيدون تجسيد كيانكم، تحاربون مستعمركم بالحياة إن كان يحاربكم هو بالموت. أجيال مديدة لتكن في نسلكم، سعادة أبدية لحياتكم، ونصر لا تتبعه هزيمة.. آمين.. " هذه كانت افتتاحية الشيخ يحيى خان، الذي كان يحرص على استغلال المناسبات لتأصيل القضية الإيغورية في النفوس، يُذكر من لا ينسى، من يتألم لا ينسى. توارث هذه القضية الأبناء من الأجداد،

منذ القدم باختلاف أجناس المختلين، تسامعوا القصص، أشعروا الملاحم، أصبحت من كيانهم وهويتهم.

- " عيناك في الخوف والفرح جميلتان.." كان سليمان ينظر إلى حُسنة بعد انتهاء مراسم الزفاف، عندما جمعهما سقف واحد لأول مرة، ابتسم ثم أردف " أقصد في تلك الليلة.. عندما رأيتك أول مرة كنتِ خائفة جداً لكن جميلة.." كان يمسك يديها برفق، انحنى قليلاً ثم قبل جبينها، لتكون أول حرف في سيرة حبهما الطاهر.

في وسط المدينة التي تعج بالبشر، الحرارة مرتفعة، الشمس تقبل رؤوس المارة بأشعتها الدافئة، في منتصف اليوم الناس يقفون في صفوف خلف بعضهم أمام المحلات، يسلمون بطائق الهوية الإلكترونية قبل الدخول إلى أي محل، هذا تؤخر حركة السير، ويجعل المواطنين بلا خصوصيات، كما أن أعمالهم اليومية وتحركاتهم تحت المراقبة.

- " لقد سئمت من هذه البطائق.. ما هذا؟؟.. لماذا يترصدوننا في كل شبر.." قالت بقرف بصوتها المغنون. كانت فتاه في مقتبل العمر، لا تزيد عن الثامنة عشرة، تسدل شعرها الطويل فاتح اللون، لديها بعض التمججات أسفل الشعر، تفوح منها رائحة العطر كأن الزهرات اعتصرت لها رحيقها ثم ألقته عليها، عليها القليل من مستحضرات التجميل، تلبس فستاناً أحمرًا، جعلها تبدو كوردة جورية تسير على قدمين.

- " يبحثون عن إدانة يدينوننا بها.." قالت مليكة بشكل مهموس، التفتت إليها الفتاه، رأتها متوشحة بحجابها الأزرق. قلة هنَّ الفتيات اللاتي يرتدين الحجاب الكامل_ تمنع السلطات من لبس ثياب تغطي كافة جسد المرأة_ غالب الفتيات يلبس مناديل صغيرة، كتلك التي كن يرتدينها النساء الأوربيات في القرون

الوسطى، لا تغطي الشعر بأكمله، أو أنها تغطي الشعر وتكشف عن العنق والنحر.

- " ألا تخافين؟؟..." قالت بملع في أذن مليكة التي تقف خلفها. الجنود منتشرون في كل مكان، لا يكلون ليلاً أو نهاراً.
- " لا أخاف..."
- " سيأخذونك إلى مراكز التأهيل.. سيضربونك.. يجعلونك تفعلين أشياء لا تحبينها.." عيناها ترتجفان من الخوف " حتى أنه لا داعي لذلك.. ما الفائدة من أن تقفي أمام دولة عملاقة؟؟..."
- " ألم تقولي بأنكِ سئمتِ من حصارهم لنا؟؟..." بتحدي.
- " ليكن لكن .. ما باليد حيلة..."
- " ألف حيلة.. أولها هويتك التي مسخت.. ما الفرق بين البنات الأيغوريات المسلمات.. والبنات الصينيات.. اللبس نفس اللبس.. والهيئة نفس الهيئة.. وكما ذهبت تركستان وأصبحت شنجانج .. ذهب الكثير من الشباب والشابات الأيغوريون والأيغوريات إلى ما يريده العدو المحتل.. "
- مد الشرطي يده ليأخذ بطاقة الفتاة، ابتسم وهو يراها، كانت ابتسامة مكر، تنم عن خبث دفين، بينما كان شرطي آخر يقوم بالفحص، رmqته مليكة بحدة، ذهبت ابتسامته، نظر إليها شزراً، أخذ بطاقتها هي الأخرى، تم الفحص، أدخلت البيانات، العلامة خضراء لكنه لم يسمح لها بالدخول.
- " تنحي جانباً..."
- " لماذا؟؟ بياناتي سليمة.. الضوء أخضر..."
- " لا تتكلمي انتظري بصمت..."

وقفت مليكة، تدور في رأسها آلاف الهواجس، تحاول تخمين ما الذي سيحدث، ما يقطع حبال أفكارها إلا رنين أجهزة التفتيش عند إدخال البطائق فيها. لا أحد يستطيع أن

يهرب من قبضة السلطات الصينية، يدخلون معلومات الناس في أنظمة رصد، ثم حين تتم إدانة شخص ما فإنهم يظهرون له ملفاً خاص به في أنظمتهم، يُدون هذا الملف كل حركة قد قام بها طوال عمره. أين ذهب؟ مع مَنْ؟ ومتى؟ بالتاريخ واللحظة. لديهم بصمات صوت، يستطيعون تحديد موقع أيّا كان، لديهم أجهزة مراقبة في كل مكان. كانت مليكة تغرق في خوفها مع كل ثانية تمر، إلى أن التفت إليها صاحب البزة الخضراء. إنهم يمشون مدججين بالسلاح، لكنهم في معركة، وليسوا بين مواطنين عزل.

- " لدينا اجتماع في مركز الشرطة.. " كان يبتسم ابتسامة جليدية، مد كفه، قبض على معصم مليكة، أرادت الخلاص، لكنها رأت أن المقاومة هنا تهور، اجتمع عليها الجنود المجاورين. على الجهة المقابلة من الشارع يوجد مركز شرطة، في إقليم شنجيانج لن تفتقد مراكز الشرطة أبداً، لن تتحرك بضع خطوات إلا وستلقى مركزاً، هذا بخلاف نقاط التفتيش. سيقّت المغلوبة على أمرها إلى ذلك المكان الموحش عنوة، أدخلت إلى غرفة بها زنزانة صغيرة، هنا يحتجز المخالفون مؤقتاً، في حال انشغل رئيس القسم في قضية أخرى، أغلقت الأبواب، الأقفال الحديدية على أعمدة باب الزنزانة. أرض صماء، جلست عليها مليكة تنتظر ما سيحل بها، لم تستطع أن تحسب كم مضى من الوقت، لم تكن بالفترة اليسيرة، كانت تضع رأسها على ركبتيها، وظهرها متكئ على جدار الغرفة، أرخت أجفانها، جلبة كبيرة أفضلت محاولتها في أن تنال غفوة صغيرة، دلف أحدهم الباب بقوة، كان شرطياً، تقدم حتى أصبح أمام باب الزنزانة الصغيرة، فتحه، أشار بيده لمليكة، جرها بعنف إلى الغرفة المجاورة على اليسار، هنا مصدر الجلبة ، رئيس القسم مع أفراد آخرين يضحكون، يتمايلون، صمتوا عندما بدت لهم الفتاة، أحدهم قام بحركة مفاجئة وأختطف حجابها من رأسها، شهقت بصوت ملاً أرجاء الغرفة، بدأت الفتاة تتخبط غيظاً، عاودوا بالضحك، كان ضحكاً

هستيرياً أكثر هذه المرة، رفعت يديها تحاول اخفاء شعرها، سحبها أحدهم إلى الكرسي، الموضوع أمام الطاولة في الجهة اليمنى من الغرفة.

- " لماذا تخالفين القانون؟؟؟ " قال رئيسهم بعد أن جلس أمامها.

- " تريد افتعال المشاكل.. " قال أحدهم من خلفها.

- " تريد أن تذهب إلى أحد مصنع (تياجين).. كاللاقي أخذناهن من فيض آباد..

ليست بعيدة من كاشغر.. من المؤكد أنك سمعتي عنهن.. " انفجر ضاحكاً بانفعال خلف أذنها حتى شعرت أنها ستفقد سمعها، كانت تصك أسناتها بقوة، كل ما بها يستنفز.

- " مصانع!! .. " قال الرئيس ثم أخذ يتفحص وجهها الخائف بخبث " ستكون

سلعة ممتازة.. لحسن حظها أنها أتت بعد حفل عيد ميلادي.. استمتعت اليوم بما يكفي وإلا كنت سأريكم كيف تعمل المصانع... " تبادلوا الضحكات مجدداً، والفتاة في المنتصف تنتظر ما بعد كل هذه الحفلات الضاحكة، فاجأها صفة قاسية.

- " لا تظني أنهم أحضروك إليّ لتستمعي لضحكاتي.. أنت مخالفة للقانون.. ترتدين

حجاباً يغطي كافة جسدك.. هذا ممنوع.. " شد آخر شعرها من الخلف، صرخت في هلع، اتبعه آخر بضربة قهوي على مقدمة رأسها، أخذت تبكي بحرقة، تصرخ، تستغيث بلا أحد. الله فقط من كان يسمع قلبها الذي يناديه في اضطراب. أخذ رئيس القسم الحجاب الملقى على الأرض، كان قد اتسخ، ربطه حول عنقها، حتى كادت تموت خنقاً.

- " لقد هدمتُ 15 بيتاً لارتداء نساء فيها الحجاب.. لا تجعليني أعمل هذا

معك.. سأهدم الدنيا عليك... " كان يزيد في غضب، يتلذذ لألمها، بعد أن خارت قواها، افلتتها، رمى على وجهها كوب من الماء البارد كان يشرب منه، وضع الحجاب في منتصف شعرها، وربطه من الخلف فعل ذلك بعنف بالغ.

- " هكذا قد أسمح لكِ بارتدائه.." دموعها فقط من كانت تجيب. تذكرت تلك الفتاة السافرة التي التقتها أمام المحل ظهر اليوم. عاد صوتها المغنون في مخيلة مليكة، ربما كانت محقة. ماذا سأفعل إن تم اعتقالني؟؟ ما الذي سيتغير؟؟ هل ستحرر تركستان؟؟ بالطبع لا" سيأخذونكِ إلى مراكز التأهيل.. سيضربونكِ.. يجعلونكِ تفعلين أشياء لا تحبينها.. حتى أنه لا داعي لذلك.. ما الفائدة من أن تقفي أمام دولة عملاقة؟.." ستدوسني وتسير هذا كل شيء. أخذت تنعي حالها، وتنتحب، تبكي كل فتاة مسلمة لا تستطيع إظهار دينها، تبكي كل إيغورية سيقت كالشياه إلى داخل الصين حتى لا يُقتل أباهَا أو أخاها. تبكي كل فتاة امتهنت كرامتها في يد عابثة قدرة. طُردت مليكة من مركز الشرطة، ربما كانت هذه دعوة صادقة أصابها. خرجت بشكل غير الشكل، وروح غير الروح، خرجت أشلاء إنسان، خرجت وهي تسيل دمعاً، وتقطر دمًا.

*

*

*

الفصل الخامس

الجميع يلبس بزات زرقاء قائمة، يسرون في صفوف منتظمة، كأنهم في وحدة عسكرية حربية، وليس في معسكر إعادة تأهيل، ينزلون عبر السلام إلى الساحة الأمامية. المعسكر عبارة عن ثلاث مباني مستطيلة الشكل، تكون حرف U باللغة الإنجليزية، لا ينزل فيها الناس بضربة حظ، أو حسب الرغبة، بل حسب الفئة النزيلة. المبنى الأول من جهة اليسار ينزل فيه المساجين المتدينين، والأوسط لمن يتواصل مع جهات أجنبية أو أبدى تبرماً من السياسة الصينية، أما المبنى الآخر لمن يتواصل مع جهات إرهابية. وفي الأخير كان ينزل عبدالحق خوجة، بعد أن تم التحقيق معه وتعذيبه بما يلزم على تواصله مع خلايا إرهابية. أنكر عبد الحق ذلك، قال أنه فقط يسافر من منطقة إلى أخرى في إقليم شنجيانج محاولاً تأمين المعيشة له ولوالدته، هذا العذر لم يكن كافياً لإدارة المعسكر، لكنهم طمعوا في كسبه لصالحهم، ورأوا أن شيئاً من خوف قد دخل إلى قلب عبد الحق، وداهية كمثلته من الجيد استخدامه. في ساحة كبيرة تتوسط المباني الثلاثة، العلم الصيني الأحمر ذو النجمات يرفرف في الوسط، تمتلئ هذه الساحة بالمساجين، أمامهم توجد منصة كبيرة. في كل مرة يأتي أحدهم ويلقي عليهم خطاباً في الولاء للأمة الصينية والحزب الحاكم والعائلة الحاكمة. من لا يبدي الرضى بما يقوله الخطيب ينال جلسة تعذيب تعيد له عقله، كانت الخطبة الأولى لعبد الحق، الكل يجلس القرفصاء في هذه الساحة لساعات يستمع إلى المتحدث اللبق، الشمس تشوي الأجساد، لا يمكن لأحد أن يتحرك، أن يتكلم أو يصدر أي اعتراض على كل ما سبق.

- " أيها الصينيون الأحرار.. " بدأ كلمته، يقف بشموخ على المنصة الأمامية، يتظلل بالعلم الأحمر.. عليه بزة سوداء لامعة " يا أبناء الدولة العظيمة.. أبناء الحزب الحاكم.. في نظام الحزب الواحد.. ألا وهو الحزب الشيوعي الواحد.. الولاء.. الإخلاص.. التضحية والتمجيد.. كل هذه قليلة في حق الحزب الحاكم والأمة الصينية.. كونوا أوفياء لأمتكم بالتفكير في تضحياتها.. لتصلوا إلى أعلى المراتب.. لا ترتبطوا بالعرقيات الهوجاء.. الصين تعني الحضارة والتقدم.. في حين

كنتم همج بربر لا تعرفون المدنية أو الحضارة.. تحكمكم معتقدات عفى عليها الزمن.. وعادات لا تمد للعالم الحديث بصلة.. ناضل هذا الحزب الرؤوف وجاء بكل عدة وعتاد لإنقاذكم.. "ابتسم أحد السجناء ساخراً، هوت عليه فوهات البنادق ضرباً من الجنود الواقفين أمامه، والكلمة مازالت مستمرة" فالوفاء الوفاء للتضحيات المبذولة لأجلكم .. لا قيود.. افعلوا ما تشاؤون.. استمتعوا بكل الأشكال.. كونوا أحراراً.. تحرروا من المعتقدات الرثة.. جننا لتحريركم بكل الوسائل.. تعاونكم ردّاً لهذا الجميل.. قفوا عند قوانين الحزب الحاكم فقط.. في الحقيقة الحزب الحاكم خادماً لهذا الشعب العظيم... ولا يفعل إلا الأشياء الجيدة للجمهور.. ولا يمكن أن يقوم بأشياء سيئة بحق شعبه أبداً.. ومن يعارضه ما هو إلا كنتن البيض يجب أن يطهر.. وهؤلاء يتم طردهم من المسرح.. " زاد من نبرة صوته صارخاً: "يستغفلون الجهود العملاقة.. هل هم عميان؟ في المقابل.. حزينا لديه الكثير من الأمور الأهم.. وليس فقط الرد على هذا وذاك.. " قال مطمئناً بعد أن فرد ملامح وجهه الغاضبة: " لا داعي للقلق حول الذين لا يزالون يفوحون بنقن البيض.. دعوكم منهم واركبوا ناعم بغناء النشيد الوطني.. " أشار بيده للسجانين بالبدل الخضراء وهو يبتسم " هؤلاء (الموظفون العاملون) الذين أتقنوا الصلاحيات والأعمال الحقيقية.. يتمتعون بدعم وإسناد.. الأساتذة.. في حزبهم الحبيب.. يقومون بعملهم براحة بال وسعة صدر وعلى أكمل وجه.. إن السبب وراء هذا المشهد الجميل ليس أن الريان يمتلك القدرة.. وأن الحزب هو الخادم الرئيسي للأمة الصينية.. ولا يعني أن الحزب الشيوعي يولد بمجدٍ وصلاحٍ عظيمين.. ولا يولد أعضائه بجودة عالية.. ونوعية جيدة.. وخط عمل شاق.. بل هو في الحقيقة (تفرد حزب) .. وتميز وطن.. ولطف المتعصبين الذين يقفون أمام عجلة التغيير.. فيركبون مع أمتهم على سفينة التقدم بكل اعتزاز.. " .

صفق الجميع سجناء وسجانين، وعلت هتافات المدح والثناء وظل مندوب
الحزب يلوح بيده لجمهوره الجبر على التصفيق له، ثم فُتحت المكبرات، وقف
الجميع كأثمن تماثيل منزوعة من الحياة، يرددون كلمات التمجيد للحزب الحاكم.
مشاعرهم ملتهبة، يشعرون بالإذلال، يشعرون بأن حقوقهم تسلب، معتقداتهم
تدنس، أصولهم تمحى. هذا ليس غسيل أدمغة، إنه غسيل أرواح، أئى لأرواح
هؤلاء أن تشفى؟؟!!

*

*

*

الساعة التاسعة صباحًا، السماء صافية إلا من غيمات متناثرة، الهواء
عليل، المبني مهيب، تشعر بأنك شيء صغير جدًا أمام هذا الكُبر الهائل. في
شمال شرق بكين، الازدحام هو سيد الموقف. مطار بكين هو ثاني أكثر مطارات
العالم ازدحامًا، هنا تتواجد الكثير من الجنسيات، الابتسامة هي اللغة المشتركة
بين الجميع، كلمة إنسانية لطيفة لا تُترجمها المعاجم، يفهمها الجميع ببساطة، لا
تكتب على الأحرف، فقط ترسم على الثغور، تفهمها القلوب بسلاسة. وكما
تجمع البشر تجمعت بعض الغيوم لتزخ بمطرها على المطار الواسع. يرتد المطر بعد
اصطدامه بالأرض، فتبدو الأرض وكأنها تبادل السماء بالمطر. كانت ليلك تلقي
بتعليماتها على شيان الذي يتأهب للسفر، منعه من تدوين أي شيء، التعليمات
الشفوية كافية.

- " ستكون أنت الوسيط الوحيد بيني وبين الحقيقة.. ستدون كل القصص والحقائق
في عقلك.. بعدها سندونها في مشروعنا ونسلمها قد تكون القصة الأخيرة التي
سنكتبها.. لكن دع العالم يعلم.. ودعنا الأحرف المنحوتة على صخرة حق
الإنسان في أن يعيش إنسانًا.." كانت قلقة بعض الشيء، ترفع يديها وشاحها
الرمادي على كتفيها، تعقده أمام صدرها. الحرارة بدأت تنخفض. كانت تجمع
شعرها في جديلتين طويلتين، تقف محتبئة من قطرات المطر تحت مظلة كبيرة
تحتها كرسي انتظار.

- " سأتابع المناطق التي طلبت مني زيارتها.. هذه الرحلة أشبه بالبحث عن لا شيء.. في حين أنني لا أعلم ماذا يجب علي أن بحث عنه.. آمل أن لا أدور في حلقة مفرغة وأن أجد طرف الخيط بسهولة.. " كان ينظر إلى الأرض، وهو يجلس على كرسي الانتظار، يتكئ بمرفقيه على فخذه، يفرك شعره في توتر تارة، و يعبث بوشمته السوداء الواقعة بين شفته السفلى وذقنه من الجهة اليمنى تارة أخرى.

- " اعمل بجد.. أراك في الأيام المقبلة.. إلى اللقاء.. " كانت تهم بالمغادرة، في حين شيان ينهض لدخول المطار، يمر خلفه حقيبة سفر سوداء، يتوارى عن الماء بمظلة زرقاء، يتناثر الماء على أطرافها.

" على جميع الركاب الاستعداد للهبوط " كان صوت المضيفة الناعم هو ما جعل شيان يعود لأرض الواقع بعد أن كان يحسب الحسابات، ويدرس التوقعات لما سيواجهه في إقليم شنجنجيانج ذاتي الحكم. ما الذي سيراه؟؟ هل ستكون كما قال له والده أنها أرض لبرير همج لا يعرفون مصلحتهم وأن الصين هي من تجرمهم إلى الحضارة لأجلهم؟؟ أم أنها نظرة والده العامة تجاه الناس جميعاً؟؟ كم مجَّها في وجهه لأبسط الأخطاء: " أيها البربري الهمجي.. " كانت الألفاظ الأكثر سيلاً على لسانه. أو أنها ستكون كما قالت له ليلك عبارة عن الضحية التي ظهرت على شكل الجاني؟؟ هل حقاً هنا سيرى الوجه القبيح للصين الذي لا يأبه بها أصلاً؟؟ لا يستشعر وطنيته تجاهها، لا فرق عنده بين بلدان العالم، المهم أن يعيش مرتاح البال. كان متردداً حتى اللحظة قبل الأخيرة من صعوده الطائرة في الخوض في هذه التجربة. شيان لا ثالث لهما ما حملاه على خوضها، حبه للمغامرة، ورغبته العارمة في نيل رضى فتاته الجميلة. كان هذا المشروع وجه سعد أمامه، فبه فقط استطاع أن يحظى بقرمها والاحتكاك المستمر معها، قبل ذلك كانت نظرة واحدة منها أمنية عزيزة بالنسبة له لا يحلم حتى بتحقيقها. هبطت الطائرة، هبطت معها دقائق قلبه، أجرى معاملاته، وخرج إلى الحقيقة. مطار أورمتشي عاصمة إقليم شنجنجيانج شمال غرب الصين. أخذ يتجول في المدينة، لا شيء غير طبيعي، مباني مشيدة،

وأرصفة مرصوفة، نساء يلففن شعورهنَّ بأقمشة كالتى تضعها خاتون على شعرها، الآن بدأ شيان بتجميع الأمور وربطها ببعضها، لقد كانت أيغورية إذًا. بدأ يفهم ربيتها وابتعادها عن الآخرين، لقد كانت مسلمة، مع ذلك لا يهم الأمر بالنسبة له، أين كانت ديانتها لا بأس طالما هو اختار قلبها ديانة له. الأماكن هنا أكثر شعبية من بكين، يقف الناس خارج المحلات في السوق، يدخلون ببطائق تعريف، هذا أمر غريب بالنسبة لشيان، حتى في المطار كان قد لاحظ أن هناك مخرجان أحدهما للأيغور، والآخر للعرقيات الأخرى، هذان الأمران كانا قد أثارا انتباهه في الساعة الأولى من نزوله على هذه الأرض. أخرج هاتفه المحمول وبدأ بتصوير المكان، أفراد الشرطة ينتشرون في كل مكان، أيضًا مراكز الشرطة تتوزع بشكل مركز في الشوارع. كانت ليالك قد أخبرته أن إقليم شنجانج هو المنطقة الأكثر انتشارًا للمظاهر الأمنية في العالم. في طريقه رأى بائع كعك على الرصيف، يقف خلف عربة، الكعك مرصوف خلف حائط زجاجي صغير. كان شيان لا يزال يمسك بهاتفه، مستمرًا في التصوير، اقترب من بائع الكعك.

- " كيف حالك يا صديق؟؟.." كان مبتسمًا ثم وجه عدسة التصوير إلى وجه البائع.

- " كل شيء على ما يرام.. نحن سعداء جدًا هنا.. الأمور تسير على منحنى جيد.." كان يبادل نفس الابتسامة.

- " هذا جيد.." أجاب. بينما هو يحول عدسة التصوير لرجل عجوز يجلس على كرسي بقرب العربة، أدار العجوز وجهه بغضب، وفرد أصابع يده أمام العدسة محاولًا منع شيان من تصويره، احترم شيان رغبة العجوز. ثم أخذ بإكمال رحلته السياحية، في الأرجاء حتى وصل إلى الفندق الذي سينزل فيه.

فرغت أطباق العشاء، الأضواء منطفئة، السرير دافئ، قطرات المطر تفرغ زجاج النافذة، جسد شيان منهك من السير طوال اليوم في شوارع أورمتشي، كانت رحلة جيدة، كان شيان قد فكر في طريقة تجعله يحفظ ما يراه يوميًا وهي أن يجعل كل الأشياء التي لفتت انتباهه في نقاط. كان أول الأسئلة التي يريد لها تفسيرًا هو ما الداعي من الانتشار الغير طبيعي

للمظاهر الأمنية؟ والثاني هو لماذا هناك تفريق بين الأيغوريين وغيرهم حتى في مدخل مطار إقليمهم؟ هذا كل شيء لهذا اليوم، كان شيان يمسك بأصابعه يحاول تذكر شيء آخر قد غفل عنه، ثم أغمض عينيه، تذكر ذلك العجوز أحس بأنه قد أزعجه دون قصد، كانت ملامحه كلها توحى بغضب دفين، وجهه العابس يده الممتدة. ما الداعي لكل ردة الفعل تلك؟ لو قال ابعد الهاتف لفعل، ثم عزم على الاعتذار منه في صباح اليوم التالي.

بعد إفطار أيغوري، الشاي الممزوج بالحليب الطازج، والفتائر المنكهة بالتوم. احس شيان بالرغبة للتجول مجدداً قبل الانتقال إلى كاشغر. في طريقه مر على بائع الكعك لعله يجد ذلك العجوز بجانبه. شوارع المدينة تنبض بالحركة، العمال إلى أعمالهم، الطلاب إلى مدارسهم. تنحى جانباً حتى وصل إلى مكان وقوف عربة بائع الكعك، لكن المفاجأة أنه لم يكن موجوداً، لا هو ولا عربته. على الرصيف يجلس العجوز بمفرده، شاردًا بذهنه، يفرك عينيه، ينزع قبعته البيضاء من على رأسه ثم يعيدها، كان حزينًا، قلقًا، عندما اقترب منه شيان، تحولت ملامحه اليائسة إلى ملامح مفترسة، مهاجمة.

- " أين هو البائع الذي كان هنا بالأمس أيها العم الطيب؟.." سأل شيان بلطف وهو يضع كفه على كتف العجوز الجالس.
- " المجد لعدسة تصويرك.." قال العجوز بلغة صينية ركيكة.
- " لم أفهم!.." مستغربًا. ما علاقة عدسة تصوير في اختفاء رجل؟.
- " بسببك ظنّ الجنود بأنه شكى إليك عن المعيشة في شنجيانج وهذا ممنوع.. لا يسمح بالتكلم عن الأوضاع مع أي شخص.. من لديه رأي يحتفظ به لنفسه.. غير مرحب بالصحفيين وبأسئلتهم هنا.." قال بهمس في أذن شيان، وهو يشده نحوه من ياقة قميصه. ثم قال " المسكين أخذوه إلى معسر التأهيل مجدداً كان قد خرج منه حديثاً .. لديه عائلة.. من سيرعاهم الآن؟؟.." أخذ بالبكاء، تأثر شيان أيضاً، تذكر كلماته البارحة، لم تكن سيئة، لم يعتزض على أي أمر، كان

مبتسمًا، متفائلًا بالحياة. لماذا تخاف الصين من أن يبدي هؤلاء آراءهم؟؟ إذاً هذا هو السؤال الثالث الذي يبحث عنه من خلال جولته في أورمتشي.

*

*

*

أشجار غضة ندية، تتراقص على نسيمات الصباح الباكر، السماء صافية بعد مطر استمر طوال الليل، الشمس ترسل أشعة ناعمة، تدعو نوافذ المدينة للنهوض. كاشغر مدينة ذات طبيعة خلابة، كحدائق بابل المعلقة، كمدرجات الأندلس، وواحات فارس، تترين بالأخضر في كل حي وشوارع. كان شيان يدقق في ملامح المدينة، لأول مرة في حياته يشعر بارتباط روحي لمكانٍ ما، كأن روحه تهرب منه إليها، إلى حدائقها، إلى أحيائها، تتأمل منازلها، تتجول في حاراتها. كانت عيناه تنتقل بين أوجه المارة في الحي القديم، قلبه يدق بسرعة، لم يشعر هكذا في أورمتشي، هذه المدينة ساحرة. رأى أطفالاً يترაკضون فتأملهم بصمت، وغارت عيناه بعيداً. كاشغر ذات مباني أقل تطوراً من تلك التي في أورمتشي، بالرغم من أن كاشغر كانت العاصمة الأولى للإقليم. أخذت أقدام شيان تسير بلا وعي، بدون إدراك حتى وجد نفسه في آخر الحي الشعبي، استقبلته هناك شجرة خضراء كبيرة، عليها حبلين متدليين في وسطهما إطار سيارات قديم ومهترئ، إنها أرجوحة أطفال يدوية، اقترب من الشجرة أكثر وأكثر، كان جذعها كبيراً، تلمسه بيده، تحسس أنسجتها الخشنة، تبدو شجرة قديمة جداً، استدار حولها فإذا برمز منحوت عليها عبارة عن دائرة بها حرفان منحوتان بعمق، إنها لغة لا يفهما (إ. ل)، التقط له صورة بجواله. في تلك الأثناء شد انتباهه صوت بكاء، التفت في دهشة، هناك منزل قديم بمحاذاة الشجرة تماماً، تخرج منه امرأة مسنة تكتم صرخاتها بيدها، تمسكها فتاة شابة، تشد على معصمها، كانتا حزينتين، تلفان شعريهما بقماش أبيض، كأنهما ستخرجان إلى سفر، دل على ذلك حقائب تقف أمام الباب. لم يستطع شيان الانتظار، ركض بسرعة، نظر في وجه المرأة لبعض دقائق.

- " ما الخطب يا سيدة؟؟ ..".

ظلت صامتة، دون كلام، كانت الفتاة التي بجانبها أيضًا تذرف أدمعها بصمت، تعض على شفتيها بألم، مسحت دمعاتها بكمها، ثم شهقت بصوت هلع، عندما سقطت السيدة أرضاً على عتبة الباب، أخذت الفتاة تولول وتبكي على صدرها.

- " لا تتركيني يا خالتي .. تماسكي رجاءً.. " قالت في أحرف متقطعة، وأنفاس متلاحقة.

- " إسما..إسما.. عبد.. يا رب.. " كانت المرأة تتمتم في اختناق، لم يفهم شيان شيئاً، أما مليكة أخذت تنتحب، والذكريات السوداء تلفح ذاكرتها.

جلس شيان بجانب المرأة، أخذ كفها ربت عليه بلطف، أخرج زجاجة ماء من حقيبتة المعلقة خلف ظهره، أسند رأسها ثم سقاها، أسقطت مقلتيه بعض الدمعات، شعر بحزن شديد، نظرات المرأة كانت مريبة أخذت تتفحص وجهه وملامحه، بدت أكثر اضطراباً.

- " من أنت؟؟ " سألت بصوت مبحوح.

- " أنا سائح صيني يا خالة.. لا تخافي.. " .

أعرضت عنه، دخلت في نوبة بكاء حادة، جلست على ركبتيها " ظلمت أنتظرهم سنين طويلة دون فائدة.. سأرحل الآن.. سأترك البيت الذي ولدتهم فيه.. ربيتهم.. لعبوا هنا.. أطعمتهم بيدي.. " دموعها السخية تسيل على خديها.

- " إن كانوا أحياء فمصير الحي أن يلاقي الحي.. أما إن كانوا قد رحلوا ففي الجنة اللقاء الأبدي.. " أخذت ملامح الجدية ترسم على وجه مليكة.

- " هو ذاك يا مليكة.. " نهضت المرأة ببطء، أخفت شعراتها المنتثرة تحت حجابها الأبيض، تقدمت خطوات إلى باب البيت الخشي، أغلقته، وضعت كفها عليه وتمتمت بكلمات، وهي تسدل جفنيها، ثم أخذت حقائبها أمسكت الفتاة وسارتا ببطء حتى تواريتا بين الأزقة والبيوت القديمة. أما السائح ظل في لحظة

تأمل طويلة، ينظر إلى أقدام المرأة المتناقلة حتى اختفت. تأمل هذا البيت العتيق الذي يبدو أنه قد شهد قصص مكتوبة على جدرانه بلون أحمر. ألقى نظرة متفحصة أخيرة على بابه، موضع كف المرأة، الشجرة القديمة، الأرجوحة المعلقة، ثم سار وسؤال ينخر في عقله، من هذه المرأة؟؟ وما قصتها؟؟

*

*

*

رائحة الخبز الطازج تفوح من الفرن، صوت فرقة الماء المغلي في الأبريق، رائحة الصباح المنعشة. نافذة المطبخ مطلة على الحديقة الخلفية الصغيرة، حُسنه تقف أمامها تعبت بخصلات شعرها البني المنساب على أكتافها، عيناها معلقتان في الأفق، تنتظر نضوج الطعام.

- " قدر اختطافك كان أجمل أقدار حياتي.." كان سليمان تركستاني يقف على باب المطبخ ينظر إلى حُسنه الشاردة، كان شعره يقطر ماء لقد استيقظ للتو.
- " لا تكن سخيًّا.. لو رأيتُ صينيًّا.. لقتلته.. " انفعلت حُسنه جدًّا، ملامحها غاضبة، كانت تضع يدها على خصرها، رمقت سليمان بحدة، ثم عادت لتأملها " أفسدت نقاء صباحي.." أضافت دون أن تنظر إليه.

جلس سليمان على طاولة خشبية حولها كرسيان، لا توجد أثاث كثيرة أو فارهة في منزلها، لكن هناك الكثير من الحب، من المودة والرحمة.

- " تعالي واجلسي.. يا جميلتي.." قال وهو يمد يده لتأتي إليه، أخذت الأخرى تخرج الخبز وتصب الشاي في الأكواب البيضاء، أخيرًا وضعت البيض الناضج أمام سليمان، وجلست وهي عابسة.
- " أنا لم أقصد أن أزعجك.. كل ما قصدته هو أنه من الرائع أن تكونين زوجتي.. وذلك لم يكن ليكون لولا أننا أنقذناك من الصينيين.. ما كنت لأعرفك حتى.." ختم كلامه بقبلة طائفة في الهواء.

- " على كل مشاعري لن تتغير تجاههم.. دعك من هذا وأنه طعامك.." كانت تقطع الخبز.
- " حسنة.. يا لب الفؤاد اسمعي لما أقول.. يجب أن تفرقي بين الإنسان والعدو.. في الأصل نحن نحمل الحب في داخلنا لجميع البشر.. الإنسان له قيمة عظيمة.. هو من روح الله.. هو أساس كل معنى.. رسولنا الكريم تحمل أنواع الأذى لينجي هذا الإنسان من الظلمات.. كان رحيماً بالجميع.. يقدس الروح البشرية بغض النظر عن الاختلافات.. يا حورية بحري.. نحن لن نقتل الصيني أين وجدناه.. لأننا لا نستعين بالروح التي خلقها الله ولا نقلل من قدرها وقيمتها.. لكننا مع ذلك لن نرحم من يأتي إلينا ويتعدى على حقوقنا ويدنس معتقداتنا ويدوس على أعرافنا.. لن نقول لمن يريد مسح هويتنا.. وطمس كيانتنا أهلاً وسهلاً.. لا وألف لا.. لا أهلاً ولا سهلاً بمؤلاء.. سنمزقهم ونريهم من نحن.. لكننا لسنا ظالمين لنحكم على الناس بما لم يرتكبه.. هل سمعتي بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل يهودياً في المدينة بما فعله يهود آخرون؟؟.. معاذ الله.. هل سمعت بأن المسلمين يقتلون الذمي؟ كم عاش بين المسلمين بشراً من مختلف الديانات.. بل اضيفي على ذلك بأنهم كانوا يحموهم من أعدائهم.. لذا لا ينبغي أن تسيطر علينا الآلام فتخرجنا من حقيقتنا.. أن تطمس ذكرياتنا الحزينة مبادئنا.. بل يجب أن نمثل المسلم الحق.. القوي الرحيم.. العادل المتين.. هذا ما يفرقنا عنهم.. نحن نشرنا ديننا بالرحمة والعدل فحكم وساد.. وأرادوا هم أن ينشروا ثقافتهم الشوهاء بالعنف فعاثوا في الأرض الفساد.. نحن دعاة حب.. وهم دعاة كراهية.. نحن السلام وهم دعاة حرب.. نحن نقول هيا إلى النور.. وهم يجروننا إلى الظلام.." مسح سليمان ما بقي من دمعات حسنة العالقة بأهدابها، وهو يمسك بالأخرى كفها المرتعشة. كان متأثراً مع ما جرى لها، يعلم أنه لم يكن من السهل عليها أن تتعرض لما تعرضت له، أن يتأذى جسد أمها أمامها. لكنه أراد أن يعطي لقلبها غربالاً، فتتحكم بمشاعرها، ولا تنزل إلى منزلة العدو.

- " أريد أن أبدأ بالعمل كطبيبة بالطب الأيغوري.. يا سليمان.. " كانت تنظر إليه بنظرات بريئة، راجية.
- " ما الذي أتى بهذا الآن؟؟.. ".
- " كلامك هذا ذكرني بمليكة كثيراً.. كانت من المقربات إلى قلبي.. كنت أنا وهي ندرس الطب الأيغوري لدى الطبيبة خالدة في كاشغر ونجري أبحاثنا هناك.. لقد برعت بهذا العمل.. كما أنها مهنة شريفة تساعد الناس وتخفف آلامهم.. بعد ذلك أريد أن أنتقي من بنات الجبل الذكيات المحبات للعلم.. وأعلمهنّ مما علمني الله بذلك لا يندثر علم الأجداد وأيضاً نأخذ من انتشار الأمراض.. ".
- " حسناً.. سأرتب لهذا الأمر مع الشيخ يحي خان.. والقائد مسلم.. كنا قد تكلمنا من قبل عن مشروع بناء مدرسة أكبر.. أعداد الطلاب أصبحت أكبر من استيعاب المبنى الموجود في الجبل.. ".

*

*

*

أقدام شيان لم تحمله إلى الفندق ظل طوال ذلك اليوم يسير بين شوارع كاشغر يحاول أن يجمع أطراف الأحجية ليجد لها حلاً، بدأت فكرته تنحو نحو الصورة التي أعطتها له ليلك، قد تظهر الضحية بصورة الجاني أحياناً، بدأت الصورة تتجلى أكثر فأكثر، الكثير من الأسئلة، والأجوبة شحيحة جداً قد تصل إلى العدم، لا أحد يدلو بدلوهُ للعقل الحائر مما زاده حيرة على حيرته. بجانب مسجد ذو هيئة معمارية فريدة، لا يوجد صوت صلاة، الناس لا يدخلون إليه، أمامه العديد من أفراد الشرطة المدججين بالسلاح. أراد شيان أن يتجرأ قليلاً ويحاول الدخول إليه، إلا أن أحدهم منعه وبقوة، أبرز شيان هويته لكنها لم تشفع إلا في أنه تلطّف في صده.

- " تمنع السلطات دخول الذين هم تحت سن السبعين إلى المساجد.. كما أنك لست من أبناء المدينة.. يمكنك التجول في أماكن أخرى يا صديق.." كان الشرطي يمد يده بأكملها أمام شيان، يمنعه من الدخول إلى المسجد الخالي تقريباً من المصلين.
- " حسناً سألقي نظرة من هنا فقط.." قال بتبرم.

لم يمانع الشرطي وعاد للحديث مع رفاقه من أفراد الشرطة، تاركاً شيان وفضوله أمام عتبات المسجد البنية. خلال تلك الدقيقة، خرج رجل عجوز من الداخل، يحمل في يده عصا خشبية يتكئ عليها، ويضع على رأسه قبعة بيضاء مطرزة بخيط ذهبي، جلس ببطء يرتدي حذائه الجلدي القديم، أقترب شيان منه ببضع خطوات لكن الآخر لم يبد أي ردة فعل.

- " كيف حالك أيها السيد؟.." كان شيان ينحني أمامه باحترام ويضع يده على صدره.
- " بخير أيها الولد.." ظل يعارك حذائه منشغلاً عن النظر إلى شيان.
- " كم هي جميلة هذه المدينة.. حقاً أثارت شغفي.. أحببتها لأول وهلة أراها فيها..".

- " إن كنت تقصد هذه المدينة فإنها لا تثير اهتمامي كثيراً.." نهض ببطء وهو يتكئ على عصاه، وجهه كان يتجدد كأن في قدمه ألم، ثم أخذ يخطو للأمام وشيان إلى جانبه ثم أكمل " أما إن كنت تقصد كاشغر ذات البيوت المبنية من طوب اللبن.. المدينة التجارية التي يعلمها القاصي والداني.. وينبعث من داخل المنزل أصوات تصنيع الذهب والفضة والحلي .. رائحة الخبز الطازج.. بائعي الكعك.. السعادة الطافحة في الوجوه.. الغرف المعلقة على المنازل.. تظلل المارة من تحتها.. الأشجار المزروعة في كل شبر خالي من البناء.. كانت كاشغر يا ولدي ملتقى للثقافات الهندية واليونانية والفارسية القديمة التي كانت تنتقل إلى الصين وآسيا من الجنوب والشمال.. هنا تتقاطع طرق التجارة الآسيوية

والأوروبية.. مدينة التجار والعلماء.. كانت تسمى بخارى الصغرى.. لكثرة علمائها وفقهائها.. لبتك رأيتها سيتناثر الشعر من فمك لمدحها.. لن يأت مستعمر ليجلب لك السعادة.. خذها قاعدة.. " هام الرجل في جدران المنازل يتأملها في حزن كأنه يفقددها بهيئتها القديمة، يشتااق طوبها اللبني الذي تميزت به هذه المدينة، يحن لصوت طرق الحلي، للأسواق المكتظة بالأجناس المختلفة، للأذان المجلجل في الأوراق، للمتراصين في الصفوف، لمجالس العلم.

- " جميلة.. " قالها شيان بعد أن ركب صورتها في مخيلته " أريد أن أعرف عنها أكثر.. لبتك تساعدي.. " نظر للعجوز برجاء، وهو ممسك بمرفقه.
- " ما الذي تريد أن تعرفه؟؟ .. "
- " أمور أخرى.. لا أقصد التاريخ والحضارة.. بل الإنسان أريد أن أفرق بين الجاني والضحية.. "

تضيق عيني العجوز، تجعدت ملامحه أكثر، ظل صامتاً، ثم طلب من شيان أن يعطيه ورقة وقلم، تعجب شيان لكنه ظن أنه سيكتب له معلومات، ربما يخاف أن يسمعه أحدهم، لكنه كان مخطئاً في ظنه. كتب العجوز أربع كلمات فقط " خضر أورو زلي - أتا جور - الماتي - كزخستان " .

- " اذهب إلى هذا العنوان.. ستتجلى لك الحقائق.. لا يمكنك النظر من الداخل.. حيث الأفواه مكتمة والأعين معصوبة.. "
- " كيف سأجده؟؟.. " شيان يتفحص الورقة بدقة.
- " اذهب إلى العنوان وستجده.. " قالها ثم مضى لحال سبيله دون أن ينطق بشيء كأنه لا يعرف أحد.

انفجرت أسارير شيان، سيقوم برحلة إلى كازاخستان إذًا، هناك سيقابل هذا الرجل، وسيعرف تفاصيل الحكاية، ستصادفه الأجوبة هناك، ستكتمل الصورة،

ويتضح كل شيء. شيان قد نسي موضوع التخرج، نسي أن ليلك تنتظر منه معلومات لتدونها، الآن هو يقوم بمشروعه الخاص، بالبحث خلف الإنسان الذي استثاره الظلم فأباه، ليكشف الحقيقة الكامنة وراء الاضطهاد الممارس ضد فئة لا ذنب لها إلا أنها من عرقية الأيغور، وآمنت بدين الإسلام.

الفصل السادس

الازدحام شديد لكنه لا يزيد النفس إلا راحة، وحر الشمس لا يزيد الروح إلا برودة، لا صوت فوق أصوات التلبية، الابتهالات، والأدعية. الكل يناجي ربه بما أثقل كاهله، بما قد شغل عقله ولبه، لا تكاد تجد مكاناً لتجلس فيه، الحركة متسارعة، البياض يغطي الأجساد والقلوب. في الجهة الشمالية من الحرم المكي يقف باب السليمانية شامخاً مفتوحاً على مصراعيه، يستقبل ضيوف الرحمان، يُذكر بذلك السلطان المعطاء الذي سرح من الشرق إلى الغرب فاتحاً وغازياً (السلطان سليمان خان) خليفة المسلمين الثمانون، وثاني من حمل لقب "أمير المؤمنين" من آل عثمان، وخليفة الدولة الأقوى في ذلك العصر. هنا التقاطع بين العرب والعجم، هنا الدليل القطعي بأن التسابق بالقلوب والأعمال، لا بالأحساب والأنساب، هنا يعلو الإسلام ولا يُعلَى عليه. بين الجموع المليبة تقف السيدة فاطمة تتحسس جدران الحرم، لتفرق بين الحقيقة والخيال، رحلة شاقة قطعنها لتصل أخيراً إلى هذه الأمنية، كان الخيار بين أن تصل إلى الأراضي المقدسة، أو أن تكون في دارها وبين ذكرياتها لكنها اختارت الأولى، وتحملت تكاليف هذا القرار _ من يخرج من داره وبدون موافقة السلطة لا يمكن أن يعود إليه ثانية _ عبر رحلة شاقة قامت بها مع مليكة من خلال جبال أفغانستان بهويات أوزبكية مزورة كانت أشبه بالمرور من فوق جهنم نجحت بشكل غير متوقع اختتمت هذه الرحلة ببيت الله الحرام.

- " الحمد لله.. الحمد لله.. " كانت السيدة فاطمة تتمتم ودموع الفرح تذرف من مقلتيها.

- " من كان يتوقع؟ الحمد لله.. ليرضَ الله عن عبد الحق.. لقد سعى كثيراً ليخرج لنا هذه الأوراق.. " ثم أردفت بحزن: " من يعلم ماذا يعاني الآن؟؟.. ليكن الله في عونهِ ويخرجه من بطش الصينيين.. " قالت مليكة بحزن.

- " آمين.. ".

توجهتا بعد ذلك إلى الساحة الواسعة كان الزحام أخف منه أمام الأبواب. أذن المؤذن لصلاة الظهر، كان صوتاً مهيباً، الكل يفهم معناه وما يقصده وما يدعو إليه باختلاف الألوان والأشكال والألسن. أرتص المصلون بأعدادهم المهيولة في صفوف منتظمة، وقفوا شامخين منكسرين، منتصبين بذلة عزيزة، وهذا ليس ضرباً من التناقض لكنه التوافق عينه، عزيزين بإسلامهم، متذللين لخالقهم، شامخين بما يؤمنون به ويدعون إليه، منكسرين أمام بارئهم يطلبون منه العون والمنعة. هم الفقراء إليه الأغنياء عما سواه، المحتاجين إليه المكتفين عما دونه، بهذا تستقيم أنفسهم وتهتدي أرواحهم. في حركات منظمة، بصوت واحد، باللحظة ذاتها، يقومون بالشيء ذاته، ويكأنهم يسرون وفق ناموس الكون!! شمساً وكواكباً، أقماراً ومجرات. لا ترى عينك فيها مخالفاً، كذلك هم. بدقة متناهية ينتقلون بين حركات وسكنات صلاتهم، حتى أتموها فخرجوا منها بغير ما دخلوا فيها.

- " أنتنَ تركيات؟؟ .." قالت شابة ذات سحنة تركية، تبدو كسكان البحر الأسود ترتدي حجاباً أسوداً ملفوفاً على رأسها ورقبتها بالطريقة التركية وتلبس جبة سوداء تغطي كافة جسدها، تجلس بجانب مليكة " لهجتكنَ تركية لكن غريبة بعض الشيء لا أفهم منها إلا بعض الكلمات.. لعلكنَّ من مناطق لا أعرفها..".

- " نعم نحن تركيات لكن ليس بمفهومي..". علت ثغرها ابتسامة صادقة.

- " لم أفهمكِ! ..".

- " ما عنيته أننا نحن وأنتن نتقاطع في الأجداد.. كلنا من عرقيات تركية تقطن وسط آسيا قبل الهجرة.. كلنا نعود في الأصل إلى عشرين قبيلة يعتزون كلهم إلى(ترك بن يافث بن نوح) عليه السلام" تتمت الأخرى " عليه السلام" وهي تَهز رأسها وتستمتع بانسجام تام" هذه القبائل هي: (بجك peçenek، جكل cigil، قبحاق Kıpçak، تخسي tuxsi، يغما yağma، يماك yemek، اغراق uğrak، بشغرت başkurt، جرق caruk، ييسمل yesml، جمل cumul، قاي kay، ايغر uyğur، يياقو yabaku، تنكت

tünküt، تاتار tatar ، ختاي xatay، قرقر kırgız، تفغاچ tavğaç، أوغوز (oğuz).

- " هل هذه القبائل كلها تركية؟! " قالت الفتاة باستغراب.

- " نعم لكن القبيلة التي تقطن تركيا الآن هي قبيلة الأوغوز وهم الذين أسسوا الدولة التركية بعد هجرتهم إلى الأناضول.. وأنت من نسل هذه القبيلة..".

- " وأنت من أي القبائل يا أختي.. " قالت بتلهف كتلهف الأطفال البريء.

- " أنا من قبيلة الأويغور.. ونحن قبيلة تركية عريقة تسكن غرب الصين.. لنا مع الصين صولات وجولات.. كانت لنا دولة عام 630م، ومن ثم أصبحت مملكة عام 646م بعد أن ثبت الأيغور أركان حكمهم قاموا من ناحية أولى بتوحيد القبائل التركية من حولهم وزيادة الضغط على الصين من ناحية ثانية، وفي عام 751م أي في بدايات نشوء مملكة الأيغور الثانية هُزمت الصين هزيمة ساحقة في معركة ميدان تالاس على يد أتراك القارلوق والعرب المسلمين مما أدى إلى انكسار شوكة الصين في المنطقة على نطاق واسع.. وبما أن الحرب سجال فقد هاجم العدو الأويغور وأثر فيهم فانقسمت الدولة إلى شرقية وغربية، أما ما يعرف اليوم بتركستان الشرقية (طورفان و كاشغر) وهو المكان الذي أُنشئت منه.. ونظراً لوقوع دولتنا على طرق التجارة ما بين الشرق والغرب تطورت من الناحية الاقتصادية على نطاق واسع.. وبسبب ذلك حدث تطور كبير فيها منذ بداية القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي في الأدب والفن معاً وما إلى ذلك بشكل كبير.. ونظراً لهذا التطور الكبير للأتراك (للأيغور) في تلك المجالات نرى اليوم بأن كلمة الحضارة باللغة التركية عبارة عن لفظ اسم هذا الشعب بشكل خاطئ فعندما نريد أن نقول حضارة فإننا بالتركية سنلفظها /uygar/ وهي تحريف لكلمة /Uygur/ أي أيغور.. وهذه هي قصة بلدي يا حبيبة.. الذي أقطاع به معك في الجذور والأصول السحيقة.. كما تجمعنا راية الدين وهذا أهم شيء..".

- " يا لهذا الجمال كل هذا خلف تلك الجبال والأودية والأنهار.. سررت بمعرفتكَ ومعرفة بلدك أتمنى لو آتي لزيارتها يومًا.." كانت الفتاة سعيدة بهذا اللقاء الزاخر بالفائدة، وبتركستان الطافحة بالحضارة.

- " ليتك تستطيعين.. نحن محتلون اليوم من قبل الصين.. هذا الاحتلال بدأ في 10/1/1949م.. تركستان لم تعد تركستان كما في السابق.. إنها شنجانج الذي يحكمها الصينيون قبضتهم الحديدية انتقامًا وحقًا.. " أصبحت عيناها نديتان تريد البكاء، اكتسى وجهها بلامح القهر، لما تحول الوجه الجميل لموطنها إلى وجه دامي حزين؟؟.

- " لماذا أسموها شنجانج؟.." ازعجت هذه المعلومة الأخرى، أرادت أن تظل الصورة التي رسمتها لتركستان بحية دون أي تشويه.

- " ليجعلوها إقليم من أقاليم دولتهم.. وشنيانج تعني المستعمرة الجديدة.. لذلك هم يحمون حضارتنا ليجعلونا تابعين لهم.. يغسلون عروقنا بالقوة.. لنكون صينيين مثلهم.. هذا لن يكون أبدًا.." قالت بحزم. كانت الدماء حارة في عروقها الأويغورية الأصيلة، وروحها المسلمة تلتهب بين جنبها.

- " الله المستعان.." قالت الفتاتان، وذهبتا في وجهتين مختلفتين، لكن شعورهما بالحمة لم يذهب. وحدة العرق، والدين والهوية لا تتحلل بمسافة أو زمن.

*

*

*

الساعد يشد الساعد، الظهور محنية تحمل الطوب، الأيدي متشابكة، الثياب ملطخة، العزائم مشدودة، الأغاني القومية القديمة تُردد، تتبعها أناشيد إسلامية عربية مألوفة، الأنفاس متلاحقة، قطرات العرق تتصبب من الجباه، الأرواح تغمرها السعادة، الجميع يعمل بجهد. البعض يحفر، والآخر يخلط الطين، الطوب يجفف، الجدران تشيد، والمباني تكتمل. الصغير والكبير يبذل المستطاع في إتمام هذا المشروع، بعد تدبير بعض المال لإنشاء مدرسة ومركز طبي

في الجبل الكبير. كان التعليم مقتصرًا على الحلقات العلمية، لكن ذلك لم يكن كافيًا لإنشاء جيلاً مقاومًا للظلم والاحتلال، جيلاً يحمل على عاتقه بناء تركستان الجديدة، الهجرة والخروج من تركستان لكل هذه الأعداد أمر غير معقول، كما أنه مكلف ومستحيل، أيضًا الدخول إلى المدن والقرى التركستانية في الداخل يعد أمرًا مستحيلًا وخطيرًا، هذا معناه الذهاب إلى الموت المحتم، ففيه قضاء على الأرواح وطمس للمعتقدات وذوبان للهوية الأويغورية الإسلامية. لذلك قرر الشيخ يحيى خان، والقائد مسلم أن يتم التركيز على النشأ الجديد من الجيل الذي يؤمل منه بأن يكون النواة الأولى لتركستان الجديدة، وأن يعيد الحضارة التي كانت أصلًا من الحياة اليومية لهذا البلد وسكانيه قديمًا. للحضارة عينان لا تبصر المستقبل المشرق إلا بهما، نور العلم وضيء الصحة، فبهما تُستأصل أمراض المجتمع الجسدية والروحية، وأيما مجتمع يُبنى على هذا الأساس يرقى، وإن كان صغيرًا كبيئة الجبل.

- " سيقوم الشيخ يحيى خان بتأهيل معلمي الدين.. الأخوة المتخصصون بمجالات أخرى يسجلون أسماءهم مع تخصصاتهم.. سيتم الفرز بحسب الاحتياج... سيتولى هذا الأمر الأخ سليمان تركستاني.. التدريبات البدنية سترأسها منصور كوتشاري.. سنحتاج إلى أخوات معلمات أيضًا.. ستتكفل بهذا الأمر الأختان عائشة وليلى فقد كانتا معلمتين في كاشغر قبل اعتقالهما.. الأمور الطبية سيعمل بها الذين لهم السبق والخبرة في هذا المجال.. سنفرد قسمًا للطب الأويغوري الذي برع به أجدادنا سترأسه الأخت حُسنة.. الجميع على رأس عمله.. هيا.. "
- كنتُ ألقى المهام، العرق لم يجف من الجباه بعد، الأيدي مازالت ملطخة بالطين، لم يكن هناك أي وقت أو مجال لأخذ قسط من الراحة. عجلة الباطل لا تتوقف فتأكل كل ما هو أمامها بنهم وجشع، كذلك يجب على الذين يديرون عجلة الحق أن لا يبطئوا، عليهم أن يسيروا مبصرين، مسرعين، لا يوقفهم شيء.
- " متى سنبدأ بمزاولة المهام أيها القائد مسلم؟؟.. " قال أحد الشبان المتحمسين.

- " من صباح يوم الغد.. بإذن الله.. كل من أوكلت إليه مهمة عليه أن يباشر بها مع مجموعته بكتابة الخطط والآليات.. ستبدأ اجتماعات الإعداد بعد صلاة العصر اليوم إن شاء الله.. "

خلال طريق عودتي كنتُ أستمع إلى أصوات الأمهات يتحدثنَ بسعادة. أسمع الواحدة منهنَّ تقول لابنها: " إن لم تكن مؤدبًا فلن يدعك القائد مسلم تدخل المدرسة.. يجب أن تلتزم بتعاليم الطالب المجتهد.. " والأطفال أيضًا يخبرون بعضهم بما سيفعلونه هناك. ما الذي سيدرسونه؟ كيف سيقضون وقتهم؟ كان هذا التغيير حديث الجميع. رأيت الشبان يتأملون ويفكرون، كل منهم يأخذ زاوية بعيدة يتفرد بها عن الناس، يحمل بيده ورقة وقلم، يدون ما يريد أن يضيفه في اجتماع مجموعته. هذا الوضع لم يكن استثنائيًا لقد كان الحال كذلك قبل سنين في مدينتي عندما كنت صغيرًا، كنا نتعلم ليل نهار، كان أي يقول لي دائمًا: " يرحل المستعمر متى اشتعلت نور العلم والإيمان في قلوب الذين يدافعون عن أوطانهم " كنتُ أستمعهم من كلامه. كلماته كانت مجوهرات اطوق بها عنقي، أرددها على مسامع أصدقائي، أفتخر بها في المجالس. كان يومًا أسودًا بالنسبة إليَّ ذلك اليوم الذي رحل فيه. كنتُ في الثانية عشرة من عمري، كنتُ أظني رجلًا حينها، في تلك الليلة المشؤومة طرق أحدهم الباب، أمي وقتها كانت تلعب مع أخي الصغير، كان رضيعًا في حجرها، أما أنا فكنت أرسم الخرائط، كنت أرسمها في أوقات الفراغ باستمرار هذا ما جعل والدي يقول بأنني سأصبح قائدًا أحرر تركستان من الصينيين، وأعيد كاشغر لتكون عاصمة الحضارة في القارة الآسيوية. طلب مني هذا الطارق الإذن بالدخول إلى حيث تتواجد أمي، قد أزعجني هذا الأمر قليلًا، لست طفلًا ليخفي عني أمرًا ويخبر به والدي، عندها وقفت في الممر سرًا وتنصت على ما يقوله. تلعنم الرجل كثيرًا قبل أن يخبر أمي بأنه قد ألقى القبض على والدي هو وبعض الرجال الذين يعملون معه في المقاومة، وأن الصينيين قد قتلوه حرقًا لأنه ضُبط بأعمال مشبوهة. صعقتني ذلك الخبر صعقًا بكيت بصمت، كان خبرًا فوق البكاء، فوق الصراخ، فوق أي ردة فعل عادية أو متوقعة. ظنت أمي بأنني لم أسمع ما قاله ذلك الرجل، قالت بأن أبي سيسافر بعيدًا عن كاشغر لوقت طويل، أما أنا

فقد سافرت جزء من روحي ولم تعد بعد تلك الليلة. ثم عندما أصبح أخي الأصغر في سن الرابعة قامت الصين بدوريات أخذ الأطفال التركستانيين بحجة أن أهاليهم لا يقدرّون على تربيتهم تربية حضارية. كان الدور على أخي في أحد الأيام الشتوية، أخذ بالقوة وفي وضوح النهار، عدت من المدرسة ذلك اليوم راكضاً إلى المنزل أخبروني أطفال الحي بأنه قد تمّ مدهامة البيت وأخذ أخي، كانت أنفاسهم تتقطع وهم يروون لي ما حادث كانوا خائفين. يومها ركضت مسافات طويلة كالثور الهائج لا أدري إلى أين. شعرت أنني قد فرطت في أمانة والدي وأضعت أخي الأصغر. كبرت مع أمي التي كانت تخفي عني حزنها لكنني كنت أراه في بريق عينيها المنكسر، استمر هذا الحال لليوم الذي ظننت فيه بأنه سيكون اليوم الذي سأجلب به السعادة إلى منزلي من جديد، لكنني فقدتها هي الأخرى وفقدت بهجة روحي معها فقدت أمي. في طفولتي وفي كل مرة أفقد فيها شيئاً كنت أركض إلى بيت خالتي، لأخبر حورية سعادتي بما ألمّ صدرتي، كنت أجد عندها الكلمات التي فقدتها مع والدي، أما في اليوم الذي فقدت أمي فيه فقدتها هي الأخرى لذلك لم أعد إلى المنزل بعدها، لم أجد مكاناً ألتجئ إليه. ركضت خارج المدينة، سرت كالجائنين بدن وعي، بكيت كما لم أبك من قبل، ضيعت كل أمانات والدي أخي و أمي وأيضاً أضعت رفيقة عمري، والتي لم يحف الخبر الذي كتب به عقد قراني بها بعد. فقدت زوجتي في يوم زفافها إليّ، في يوم فرحتي بأن نلت قربها، لم استطع تحمل كل هذا جئت لهذا الجبل لأجد فيه دوائي، هنا لن أفقد شيئاً مجدداً، فلم يعد لي شيئاً لأفقدّه، فوهبت روحي رخيصة حتى لا يفقد الآخرون أحبائهم، حتى لا يختطف الأطفال فيكبرون بعيداً عن أمهاتهم، حتى لا يفقد الأولاد آباءهم فيكبرون أيتاماً يتعطشون لريّ الأبوة. أحارب بكل ما أوتيت من قوة حتى لا تُقتل الأمهات ولا تُختطف الفتيات إلى المجهول، حتى لا تعاد المحارق، ولا تتكرر الحروب، حتى لا يرى الأطفال المجازر والملاحم. حتى لا يخف أحدهم ما يعتقدّه ويؤمن به، لنعيش أحراراً كما ولدنا، ليكون الإسلام عالياً. حتى لا ينحني جبين الوطن، لنعيش بسلام ونموت كذلك.

قُبيل الظهيرة، وحين كانت ليلك تعمل في إحدى المطاعم التي تنتقل للعمل فيها لتؤمن معيشتها ومعيشة أختها الكبرى، كانت الأخيرة تجلس قبالة النافذة، تدون في مفكرتها القديمة كعادتها إلى أن فاجأها طرق طارق. لم يعتد الزوار على الجيئ إلى هذا المنزل طوال مدة عيشهن فيه. كان منزلًا صغيرًا باب خارجي وسلام مؤدية إلى شقة واحدة، فيها غرفة نوم وأخرى للمعيشة، كان كافيًا بما فيه الكفاية لتكون الفتاتان حياة مستقرة. ليلك وأختها لا تحبذان التعرف على أصدقاء جدد، أكتفين بدفن الذكريات في أمل العودة إلى الوطن. حق العودة بذرة نبتت وتورقت في قلوبهن فلا تراحمها فيه أمنية، أما التوقعات فتركت لعلام الغيوب. لم يطلن التفكير بما ومن سيكون في انتظارهن تحت سماء الوطن، على الأرجح لن تكون الأوضاع جيدة، لن يكون المنظر سارًا، لا يعلمن من بقي من أحبائهن ليرتدين في أحضانه وقت العودة للديار. ربما حجارة المنزل المليء بالذكريات، أو أشجار الحديقة الخلفية. ربما الكتب على الرفوف، أو لا شيء. قد تنكرهن المدينة، قد لا تعرف أرضها وقع أقدامهن؛ فالمدينة تبدلت أحوالًا بعد حال. أردن أن تمضي سنوات عيشهن في بكين بسلام، همت خاتون بالعودة بأي طريقة؛ لكن حرصها على ليلك ومستقبلها هو ما جعلها تترث إلى حين إتمامها لدراستها. عندما فقدت خاتون كل شيء وهبت حياتها لليلك " أنتِ وردتي التي أرويتها بحياتي.. " هذا ما تردده على مسامع أختها الصغرى بشكل مستمر. ليلك لا تعرف أبًا أو أمًا، لا تعرف أختًا أو أختًا منذ كانت في العاشرة أصبحت كبيرة جدًّا، فهي امرأة حكيمة في جسد طفلة منذ ذلك العام. قبل ذلك كانت طفلة صغيرة، جميلة، كثيرة البكاء لا تعرف سوى الدلال؛ فهي أصغر ثلاث أخوات وأخ كبير. كانت الأثيرة عند والدتها وأخواتها، كسحابة معطاءة غمرتها خاتون بخنان الأم ونصح الأب، عطف الأخت وسند الأخ، كقطع الأحجية سدت ثقب قلبها، كانت كل ما يمكن أن تكونه لها، لم تحب شيء كليلك. أغفلت الطرف عن جميع الأمنيات عدا سعادة وردة دارها ويسمة حياتها. في صباها كانت خاتون أكثر نشاطًا وحيوية، طافحة بالطموح، تشع بالأمل، حلمها أن تكون كاتبة كبيرة، تعج المكتبات بحبرها، درست الأدب الأيغوري والعربي، عاشت حياتها بين دواوين الشعر وكتب الأدب، لديها مكتبة تزخر بالكتب تقضي فيها معظم وقتها.

تلقي الشعر في مدارج الثانوية، في تجمع العائلة، كلما وقودها للتحرير. تركستان هي كنها
ومكنونها، وعبد الله هو فارسها الذي يمتطي جواد المعركة. ذهب عينها لتتبع بعض الكلمات.

" يا غائي الموجود.. يا بعيدي القريب.. يا هناء حياتي.. وسلام مماتي.. يا معنى حاضري ..
وعبق تاريخي.. أين أطياف الذاهبين.. أو في قوافل العائدين أنت؟؟.. قول لي بحق الله كيف
أنساك !!!.."

مررت أناملها الرقيقة على حروفها الهزيلة، ظلت تتحسس تلك الأوراق الشاحبة التي
ما برحت تنقش عليها، إنها تحفظ كلما المرسومة عن ظهر قلب؛ فهي متنفسها في غياب
الهواء، وأنسها في زمن الوحشة، وبقايا أملها الغريق في عمق اليأس. تذكرت يوم قرائها وهدية
زواجها الأولى، خاتمها الذهبي الأنيق، تتربعه جوهرة حمراء منحوت في قلبها بالعربية حرف (ع)
بشكل مائل، ملابسها الببيضاء السابغة، عطرها الرقيق الفواح، والدتها ووالدة زوجها عن يمينها
وشمالها تحرقان لها الحناء. أخذت كل واحدة منهم كرة صغيرة من الحناء ووضعتها في الكف
القريب منها. الفتيات يحنن حولها كحور العين، يتمايلن ويرقصن، صديقاتها بنات حيها، ليلك
لم تفلتها ولا للحظة كانت متشبثة بثوبها لم ترد أن تتركها أختها وترحل مع زوجها الذي ينتظر
خارج المنزل مع الرجال، يتحين لحظة اللقاء. تلك الليلة حملت أكبر الأفراح وآخرها. في تلك
الفترة بالضبط قامت السلطات الصينية بدوريات عشوائية بتزويج الفتيات الأيغوريات من
رجال صينيين حتى تتم عملية الدمج الحضاري الذي تسعى الصين لتطبيقه في إقليم شينجيانج،
وما هو إلا تذكير عرقي لذلك الشعب العظيم الذي لا يزال يتشبث بهويته رغم قص أجنته
المخلقة. ذلك الصقر الجامح لا يموت بجلد غيره حتى لو تنف الأعداء ريشه، كذلك كانت
خاتون القوية، لم يشفع لها عقد قرائها الذي كتبه شيخ الحي، لم يكن زواجًا كما تشتبه السلطة،
لم يطبق فيه القانون الصيني، كان قرانًا إسلاميًا. بزينتها وجمالها أخذت خاتون عنوة، ليلك لم
تفلتها، صرخت بكل ما تملك من قوة " لن تأخذوا أختي كما فعلتم بإسماعيل.. " كانت طفلة
العاشرة برعمة صغيرة في بستان العائلة، ذاكرتها ممتلئة بإسماعيل النابغة، صديق طفولتها
الشجاع. عينها تشع ببريق قوته، دمه يعج بحماسته، كان يعلمها الأحرف العربية كانا في

الرابعة في ذلك الحين. إسماعيل الذي كان يدافع عنها، يعدها بأن يحررا تركستان معًا، طفلًا بجسده، رجلًا بطموحه وعقله. صفعها ذلك الجندي صفعة كادت تنثر ملامح وجهها على الأرض. أخذت هي الأخرى بجانب خاتون، وفي مكان ظالم مليء بالفتيات والنحيب، ظلت خاتون تتلوا آيات القرآن التي تحفظها وتمسح بها على رأس ليلك لتهدئ من روعها. أخفت مشاعرها الهلوعة لتكون الود المتبقي لأختها الصغرى. نصيبها كان مظلماً رجلاً بدينًا فظاً، لا يعرف رحمة أو شفقة، حيوان مفترس في هيئة إنسان، ضابطاً متعطشاً للدماء، السكر له عادة، والعريضة له عبادة. لم تكن خاتون المظلوم الوحيد لكنها الأكثر تضرراً من بين الجميع، عاشت ليالٍ سوداء تحت سقف بيته الموحش، تصاب بالغثيان كلما تذكرت رائحته النتنة وأنفاسه الكريهة. تتنابها رعشة خوف تسري على طول جسدها كلما رأت أثراً على جسدها من آثار السياط التي تشوي ظهرها مساءً. توارى ندبات الأظافر المغروسة في لحمها الغض خلف ملابسها الطويلة، كانت عبيدة في صبرها لم تدع الظالم يستلذ بظلمه، لم تكن غنيمة زاكية، كانت شوكة في حلق سجانها. السلوى الوحيدة لها في لج الظلم هي ليلك التي تذهب إلى المدرسة البعيدة جداً وتعود لتسرد لها كل ما رأته نهاية اليوم. فضلت أختها أن تكون في مدرسة بساعات أكثر حتى لا تتواجد في البيت أكثر الوقت. خاتون تمحو كل ملامح الحزن من وجهها وتستقبلها بفرح، تعانقها لترتد إليها نبضات قلبها، تحذرهما من الحديث إلى أي شخص غريب، تبتهل وتدعوا الله ليل نهار لينجيهما، ترتقب الفرج مع كل فجر، إلى ذلك الفجر الذي كان الفرج فيه ملموساً. مات ذلك السجان في سجنه، فمه يرغي زبدًا، مات مختنقًا بجشعة، كبده لم تتحمل كمية الكحول التي شربها تلك الليلة. انشغل الجميع بضابطهم المحترم، حين هربت خاتون ومعها ليلك إلى الشقة التي هما فيها الآن في وسط بكين في شارع شعبي يعج بالناس. اعتكفت خاتون في مكانها، لم تغلب على ما عاشته بسهولة، الكوابيس تلاحقها في منامها وأحياناً أخرى في يقظتها، اكتفت بمحيطها الآمن، فترى الخارج عبر عيون ليلك المنطلقة. اشتد طرق الباب أكثر، خفق قلب خاتون بشدة، نزلت من على كرسيها الخشبي، دلفت الأوراق التي في حجرها إلى السرير الذي بجانبها، تسللت بهدوء على السلام حتى وصلت إلى الباب الموصل للخارج، وضعت حدقة عينها على الثقب في الباب، لم تجد أحداً، تأملت أكثر لم

يصادفها شيء، ظنت أن أحدهم قد أخطأ في العنوان، أثناء عودتها تخرجت قدمها اليسرى بظرف ورقي محكم الإغلاق، حملته بيديها تفحصته، لم يكتب عليه اسم" ربما هو مرسل إلى ليلى.. ربما أرسله شيان.. لديه الكثير ليقوله عن رحلته أو أحد زملاءها.. قد أدخله من فتحة البريد.." أضمرت ذلك في نفسها، ثم عادت لتنهى قراءتها إلى أن تعود أختها.

*

الفصل السابع

على جبل إرشييس الشاهق، الذي يعتبر ثالث أعلى جبل في تركيا، تقع مدينة قيصري. المدينة الممزوجة الثقافة بين الأزرق والأحمر تختلط حضارتها السلجوقية والعثمانية مكونة نتاجاً عريقاً، وتعد هي الحاضنة الأكبر للجالية الأيغورية في تركيا. قيصري هي عاصمة إقليم الأناضول الذي أستوطنه الأوغوز قديماً لتقوم فيها أعظم خلافة إسلامية. التجذر العرقي والوحدة العقائدية أفسحت المجال للأيوغور بالفرار من التتبع الأحمر المستبد إلى الهلال الإسلامي والنجمة التركية تحت الراية الحمراء الحنونة. تنتشر المنظمات الأهلية الأيغورية التي تسعى للتعريف بقضيتهم المقدسة. تسعة وستون عاماً وتركستان في سجن كبير تحت القبضة الحديدية_ يسميها البعض بفلسطين آسيا الوسطى_ وأبنائها ينقشون حلم العودة على أرض أبناء العمومة. السيدة نور الله وزوجها حميد جوكترك عضوان فعالان في منظمات التعريف وبتأسيس معظم الحملات الثقافية التي تنقل ثقافة شعب الأيوغور إلى الشعوب الأخرى، أسسوا مؤسستهما التعريفية الخاصة، كما افتتحتا جمعية خيرية للفارين من داخل تركستان إلى تركيا. كانت السيدة نور الله تنتقل بين الغرف تضيف الترتيبات الأخيرة على الشقة، ترتقب بفارغ الصبر وصول صديقة الطفولة، رمت سنوات عيشها الطويلة وراء ظهرها وظلت تتذكر كل الأشياء التي تريد أن ترويها للسيدة فاطمة. فيض آباد كلها كانت تتحدث عن صحتيهما تركضان في الحقول الواسعة، ترشان بعضهما بماء الغبول، في القرية الخضراء لا يوجد حجر أو شجر لا يعرف فاطمة ونور الله. كان والد نور الله في السجن، أعتقل في العام الذي ولدت فيه. كان إحسان درغا والد فاطمة يملك دكاناً صغيراً في فيض آباد، فلا يعود إلى منزله إلا بعد أن يوصل الحاجيات إلى منزل صديقه المعتقل، كان انعكاسه في العالم الحر. قبضة الصين آن ذاك لم تكن كما هي عليه الآن، كانت في سنينها الأولى لذا كان هناك مجالاً للتنفس بخلاف الآن. لم يكن إحسان ليفرق بين فاطمة ونور الله أبداً، في ليلة من الليالي الشتوية الباردة، حدث هجوم على القرية من قبل الجيش الصيني، كانوا يبحثون عن المقاومين في القرى، المدهامات عشوائية، اعتقالات بدون تهمة، وقتل دون محاكمة. من تلك الليلة اختلقت دروب فاطمة ونور الله ولم

تري إحداهما الأخرى بعد ذلك. مشاعر السيدة نور الله متهيجة، تبكي تارة وتضحك تارة، لأول مرة تسمع السيدة جرس الباب المزعج كأنه موسيقى عذبة، ركضت نحو الباب بسرعة، فتحته دون أن تسأل من الذي خلفه.

- " الحمد لله يا أختي.. كنت أعرف.. " كانت تبكي وهي تحتضن السيدة فاطمة، كانتا تهتزان من قوة النحيب. مليكة هي الأخرى أثارها الموقف، فكفكت دموعها المتساقطة بأناملها، وبين دمعاتها تتسلل بسملة فرح إلى ثغرها.
- " عدت لرويتك لكني لم أجديك.. بحثنا عنكم في كل مكان.. " قالت السيدة فاطمة وهي تمسك بيد صديقتها، وتحتضنها بالأخرى.

على الأريكة جلست السيدة فاطمة والسيدة نور الله تتحدثان، مليكة تصب لهن القهوة وتستمع إلى أحاديثهن التي لا تأخذ مساراً واحداً، ما إن تدخلتا في قصة حتى تشرعا في أخرى. لم ترى مليكة خالتها ثرارة هكذا من قبل، لم تدعها شخصاً عاش في فيض آباد إلا وذكرته. لا حجراً ولا شجراً، تكلمتا عن الجبال، الوديان الضيقة، الغيول السيالة، عن الآيات التي حفظنها في مدرسة الشيخ أديب خان، عن قصص السيد إحسان درغا في دكانه، ومواعظه.

- " ليتته يرانا الآن يا نور الله.. لقد أحبك أبي كثيراً.. عندما مات كان آخر ما تمناه هو رؤيتك أنت وأختيك.. أراد أن يعرف إلى أين ذهبت.. كنت أمانة صديقه العزيز..".

- " في تلك الليلة التي داهم الصينيون قريتنا ومع اشتعال النيران.. وانتشار الأدخنة.. أصابت أمي نوبة فزع مخيفة.. تشنج جسدها بالكامل.. أتى خالي مع أولاده وأخذونا بشاحنة كبيرة إلى الحدود الأفغانية.. كانت مليئة بالناس الهاربين من تركستان.. تركتنا الشاحنة قبل الحدود بمسافة كبيرة.. سرنا مشياً على الأقدام حتى وصلنا الحدود.. ثم عبرنا جبال (الهملايا).. وجبال (آباهير) مشياً

على الأقدام.. والله كلها قطعناها مشيًا يا أختي.. كانت مناطق غير مأهولة بالسكان.. هناك أطفال صغار ونساء وشيوخ.. كانت حركتنا بطيئة.. أكلنا كل ما لا نتوقعه لنكون على قيد الحياة.. بتنا ليالي وأشهر في أماكن غير صالحة لعيش الإنسان.. تفشت الأمراض فينا.. بل استعرت كاستعار النار في الهشيم.. ماتت أختاي بالمalaria.. كنا حفاة عراة.. دامت هجرتنا لمدة سنتين.. كان زوجي حميد وعائلته معنا أيضًا.. كنا عوائل كثيرة.. أعدادنا تقلصت كثيرًا عن العدد الذي خرجنا به.. تدبرنا أمور عيشنا شيئًا فشيئًا إلى أن استقرينا في قيصري هنا في تركيا.. لم ننسى شعبنا و وطننا و ما عشناه ولا ليوم واحد.. نحن رسائل الأيغور إلى العالم.. عندما قرأت اسمك في ملف الطالبين باللجوء إلى هنا قفز قلبي فرحًا.. شعرت وكأن ريحًا أتتني من الشرق البعيد.. تحمل هواء فيض آباد وكاشغر وأوروماتشي.. حللت أهلك وأزلت سهلاً.. " كانت الدمعات تقاطع الكلمات، الغصص تدافع الجمل، ثم صمتت الألسن وتكلمت القلوب.

- " لقد دعوت الله في بيته الحرام أن يأتيني بكم جميعاً.. " قالت السيدة فاطمة بعد مدة صمت طويلة، كانت ترى تحقق دعوتها، وأول ذلك الفيض كانت السيدة نور الله رفيقة الصغر.

*

*

مع بدايات فجر يوم جديد، أردت أن أسطر فجرًا جديدًا على مستقبل أطفال ونساء وجميع ساكني الجبل الكبير. أنا مؤمن بشدة أن الشعوب المنعزلة لا يمكن لها أن تسود أو ترتقي. الأسباب العائدة في أن تكون تركستان في القرون الأولى ذات صيت وكعب هو انفتاحها على العالم، والتقاء خطوط التجارة الأوروبية والآسيوية فيها، وهذا الانفتاح أزهرته نظرة الإسلام للاختلاف الحضاري بين البشر، هذا ما جعل من هذه المساحة المترامية في وسط آسيا مزيجًا من العرقيات التركية والأوزبكية والآذرية وغيرها من العرقيات تأخذ طابعًا من التنوع والتجانس، فكانت بلدًا ذات صدارة. أما عندما يتحول الوطن إلى سجن كبير مسيح فلن يعلم

أحد بما يحدث في أرض مساحتها 642,800 ميل مربع. هذا الوطن هو جمره مشتعلة في قلوب أبنائه اليوم، لم تشغلهم المنافي عن التفكير به، ولا بد وأن يكون لأي قضية سفراء حتى لا تموت على أرضها ثم لا تجد من يضع الورود على قبر الانعزال الذي حُكم عليها. حتى تشعل نار التحرير كلما أخذت، لنكن نحن الجمرات الملهبة لمشاعل الحرية حتى وإن أبعدتنا المسافات وفصلت بيننا الجبال، قلوبنا تلوذ تحت راية الوطن المعزول، الذي لم يرد الانعزال عن العالم لكن أُريد له ذلك. نحن بين خيارين مرين إما الذوبان تحت كف المحتل، أو الانعزال في المناطق النائية والبعيدة كهذا الجبل الخنون، وهذا يجعلنا في معزل عن عكس الصورة الأيغورية الصحيحة، تلك الحضارة المليئة بالحياة، المفعمة بالتعايش. الصين ذات اليد الطولى وسياساتها القذرة تطلب من الدول الأخرى إعادة الفارين منها؛ فالعزلة لم تكتب على تركستان فحسب بل حتى على أبنائها. قررت أن أكون من أولئك الشجعان الذين تحدوا هذه القرارات وانتشروا في الأرض يُعرفون العالم بقضيتهم. كازاخستان كانت خيارى وخيار الكثيرين من أبناء الأيغور وذلك لقربها الجغرافي، وأيضاً لوجود مصالح تجارية واسعة بين الصين وكازاخستان، فهي تعض بالنواجذ على طريق الحرير التجاري بينها وبين كازاخستان، لذلك تدهن العسل على وجهها قليلاً أمامها. المسلمون الكازاخيون لا يقبلون تعامل الصين القاسي مع إقليم شنجيانج والذي توجد فيه بعض العائلات الكازاخية للصلة الوثيقة بين أعراق المنطقة. أعطت كازاخستان 500 جنسية للاجئين الأيغور. كنت أوظب حقيرة سفري الصغيرة، دسست هويتي، ثم صلبت ركعتين أطلب فيهما أن يسلمني الله لأتم عملي فأنقل صورة الظلمة التي يعيشها الناس بعيدون عن ديارهم ومدنهم، المتطلعون ليوم العودة، فلا أحد ينوي الإقامة الأبدية في الملاجئ وإن كانت مدناً من ذهب. الأبناء يأكلون الخبز المعجون بذاكرة الآباء، الأطفال في المهمل ينمون على ملايح الوطن؛ فتركستان هي الأمانة اليتيمة في قلوب أبنائها. عندما استقرت الشمس في كبد السماء كنت قد استقرت على مقعدي في الحافلة الكبيرة متوجهاً إلى (ألماني) العاصمة الأولى لكازاخستان. طوال الطريق وكأي سفر أقوم به أتأمل في كل ما يصادفني الجبال، الأشجار، الصخور. أرى الثبات في كل هذه المخلوقات، جميعها راسخة في مكانها، تمر السنين والأعوام، يذهب محتل ويأتي آخر وهي لا تزال على عهدتها ووعدتها رسوخاً وثباتاً. الإنسان وحده إن

ثبت فإنما يثبت بقلبه. دائماً ما كنت أدعو الله بأن يمنح قلبي الثبات بعد كل مصاب. مع تقدم الأحداث وفقدي المستمر لما ولن أحب، وكلما هم قلبي بالانخيار، كلما ترحزحت قدمي قليلاً، عندما يصيب روحي الوهن، كلما سولت لي نفسي بترك كل شيء والفرار بعيداً، كان الله يثبت قلبي المضطرب فأعود بأقوى مما كنت عليه. كل الأحزان تتلاشى في حرف أعلمه لطفل، في بسمه ارسمها على أرملة، في تصوير المكومين، في تذكير الغافلين، في إشعال رماد القلوب النائمة، في تلميع مفاتيح البيوت العتيقة. سعادتي تجد طريقها إليّ عندما أجد الطريق إلى قلوب اليتامى والشكالى من أبناء شعبي الصابر. توقفت الحافلة في نقاط تفتيش كثيرة. إذا ضبط شخص أيغوري لا يملك ترخيصاً للسفر فمآله إلى جهنم هؤلاء، فالسفر أمر صعب على سكان الإقليم، لا بد أن تتعهد بالرجوع، وتكتب مقالات طويلة في انتمائك إلى الأمة الصينية وولائك للحزب الحاكم، وإلا فلن تخطو شبراً واحداً خارج شنجانج. كانت هويتي كازاخية لذا لم يشر أحد معي أي جدل. عبرنا الحدود حتى وصلت إلى ألماتي. ألماتي وغيرها من المدن الكازاخية لا تختلف كثيراً عن تركستان الشرقية؛ فالطبيعة نفس الطبيعة، الخضرة تغلب، الجبال المرتفعة، الجو الممطر، برد الشتاء نفسه، حتى البشر هنا يشبهوننا كثيراً. كنت أقف بين المسافرين بعد طريق طويل أستمتر ليومين، أخذت سيارة أجرة وانطلقت إلى مقر منظمة (أتاجورت) المختصة بالقضية الأيغورية من الجهة الإنسانية، يرأسها صديقي المسلم من أصل صيني (خضر أوزوزلي).

الكراسي مرصوفة بعضها بجوار بعض، في بداية القاعة الكبيرة توجد طاولة عليها ملفات كثيرة، خلفها ترتص ثلاث كراسي يجلس على إحداها صديقي خضر، وعن يمينه وشماله رجلان لا أعرفهما. هناك نساء و رجال وأطفال يجلسون على الكراسي المقابلة، في كل مرة يتحدث أحد منهم. يأتون هنا ليدلون بما عاشوه في إقليم شنجانج أو ما عاشوه في معسكرات التأهيل الصينية، يقصون قصصهم ليتم توثيقها وتدوينها في ملفات المنظمة، ثم تقدم هذه القصص إلى منظمة العفو الدولي، ومنظمات أخرى تعمل في مجال حقوق الإنسان. أشار خضر

مغص شديد ومفاجئ مما اضطرني ذلك لعيادة الطبيب.. وعندما عدت وجدت كارثة يلخصها هذا المقال:

" في صيف 2013 في منطقة (كاشغر) امتنعت سيدات إحدى العائلات المرموقة والمحبوبة في محيطها والمعروفة بتمسكها بالدين الإسلامي عن خلع حجابهن، فتم حرقهنَّ أحياء عن طريق إضرام النيران في منزلهن وهنَّ بالداخل، بزعم أنهنَّ إرهابيات انفصاليات، وفي أعقاب هذه الحادثة قام النظام الصيني القاتل المحتل بقتل مجموعة من الشباب الأويغوري العزل في منطقة (قاريليك) عن طريق إطلاق الرصاص عليهم من طائرات بدون طيار، وكان الحادث مروِّعاً للغاية، لدرجة أنهم لم يستطيعوا التثبت من هوية هؤلاء الشباب الشهداء إلا عن طريق تحليل DNA لأشلائهم الممَرَّقة، أو على الأقل حاولوا التثبت منها " .

- " الحمد لله على سلامتك.. " ردد الجالسون من حولها بعد صدمة الخبر، الذي إما عايشوا أحداثاً مماثلة له هم أو أحد معارفهم.

- " أنا ميريت عمري هو 30.. لقد ذهبت أنا وزوجي إلى تركيا لزيارة أبي المريض.. تركت طفلي عند جدتهم لأبيهم.. عندما عدت كانوا قد أخذوا والدة زوجي للمعسكرات.. وأخذوا طفلي إلى دار الأيتام.. " أخرجت المرأة من حقيبتها صورة ثم أرتمها لخضر " هل هذه دور أيتام أم سجون؟؟.. كيف لدار أيتام أن تحوطه الأسلاك الشائكة؟؟.. " أجهشت المرأة بالبكاء. رثى كل الحاضرين لحالها كانت تحتضن طفلها الرضيع " كان هذا الطفل جنيئاً في بطني عندما سافرت إلى تركيا.. السؤال الذي يحيرني ويؤرقني بشدة.. متى سألتقي بطفلي إنهما في الخامسة والثالثة؟؟.. مازالا صغيرين على هذا.. وهل سيعرفوني عندما أراهم يا ترى؟؟... " صرخت بقوة. أغتسل وجهها بالدموع والعرق، سحبها زوجها إلى زاوية بعيدة في القاعة وحاول أن يخفف عنها. أما أنا فقد كنت أجلس في آخر الصف أحترق مع كل قصة. خضر والرجلان اللذان بجانبه يدونان كل ما يسمعانه، ثم يأخذان البعض على انفراد لمزيد من التفاصيل إذا لزم الأمر.

الفصل الثامن

بدأت البرودة تسيطر على الخارج، الصباح بسماءٍ ضبابية، الأرض مبتلة، الداخل مختلف تمامًا، إضاءة حمراء مشتعلة، الأرائك منتشرة في الصالة الواسعة. في الزاوية الداخلية من صالة الاستقبال يقف عبد الولي يطلب كوبين قهوة وقطع معجنات، بعد لحظات ستجرى معه مقابلة. يصاب برعشة خوف كلما تكلم عن قصته مع حلم الروضة، لو كان الأمر بيده لدفن هذه الذكريات وحطمها كما تحطم صرح روضته البهي. الأحلام التي تُقتل قبل أن تولد أشد ألمًا من تلك التي عاشت ولو لحظة من لحظات الانتصار. حمل الرجل إفطار الصباح وعاد إلى إحدى الأرائك، فتح باب المصعد وخرج شيان الذي يبدو عليه الإرهاق والتعب.

- " صباح الخير.. هل انتظرت طويلًا؟.. " كان شيان يمشي باتجاه الأريكة. يحمل زجاجة ماء، وشريط من أقراص مسكنة.
- " لا .. أتيت للتو.. لا تفوت قهوة هذا الفندق.. إنها لذيذة جدًا.. "
- " إن لم تمنع لتحدث أثناء الطعام.. " كان شيان يتكلم بصعوبة.
- " هل أنت بخير؟.. لا تبدو بصحة جيدة.. "
- " لا عليك.. فقط بعض الصداع.. سيزول بعد تناول المسكنات.. " حاول أن يضغط على نفسه، أخذ قطعة من المعجنات. واكمّل " لتبدأ من أصل الحكاية.. الروضة.. الاعتقال.. الخروج.. كل ما صادفك .. " قضم قضمة من طعامه، أتبعها برشفة من القهوة المصبوبة في الكوب الأبيض اللامع.
- " بدأ الأمر عندما أحسست بالخطر على مستقبل الطفل الأيغوي.. الصين اقتصرت التعليم في المدارس على اللغة الصينية.. تركت الفتيات للغة الأيغورية فقط تدرس بها مواد الأدب.. كنت أعمل في مجال التعليم.. التدريس هي مهنتي المقدسة.. تحققت من القانون في السماح ببناء روضة تقوم على التعليم باللغة الأيغورية.. ظاهر القانون يسمح بذلك.. شحذت همتي.. خططت.. عملت بمجد لأنجح هذا الحلم الصغير.. لوت السلطات ذراعي بتهمة ملفقة.. قالوا بأنني

ورفاقي جمعنا أموالاً لبناء المشروع بطرق غير مشروعة.. " عقد عبد الولي يديه أمام صدره، ترك طعامه، وأسند ظهره على الأريكة" حكم علينا بالسجن لمدة عامين.. هنا مربط الفرس.. سأبدأ منذ أول لحظاتي في عالم السجن والاعتقال.. السجن يختلف عن معسكر التأهيل فذلك جهنم وهذا قعرها.. دخلت إلى الزنزانة وألقيت التحية.. ((السلام عليكم)) لم يجيني أحد.. رمقني أحد السجناء بنظرة جامدة.. ما كنت لأتفاجأ لولا أن السجناء عرفني بأنه سجين سياسي.. لأن السجناء السياسيين حسب معرفتي من أكثر الذين يعرفون قيمة تحية الإسلام والرد عليها.. كان ذلك السجن هو أحمد قاري الذي أصبح مرشدي بالسجن ويتعاليمه لاحقاً.. ظل أحمد في وضعية عسكرية حتى خرج السجناء.. ثم طأطأ رأسه بأسي.. وقال لي: لقد ارتكبت خطأ يا أخي.. يمنع أن تحيي أحداً بتحية الإسلام.. بل تقول بالصينية «baogao».. كان السجناء أيغوريا وإلا لكنت مت من الضرب.. هزرت رأسي بلا مبالاة.. ثم نظرت إلى الزنزانة.. كانت غرفة مليئة بالرطوبة والعفن.. لا توجد فيها إلا إنارة ضعيفة.. في وسط الغرفة.. حفرة تخرج منها رائحة قذرة.. عرفت فيما بعد أنها الحمام الذي يسمح للسجناء باستخدامه.. كم شخص ضربك قبل وصولك إلى الزنزانة؟؟ فاجأني سؤال أحمد.. قبل أن يسأل أردت أن أدفن الأمر حيث حصل.. كنت أتمنى أن لا يسأل أحدهم هذا السؤال.. كنت أتمنى أن لا يعرف أحد ماذا لقيت هناك.. فلم أتمالك نفسي من الشعور بالقهر... كنت أرضى إذا اكتفوا بالضرب من غير أن يتعدوا إلى هدر آدميتي.. إلى إذلالني وإهانتي.. " ما أصعب بكاء الرجال! بكى عبد الولي ولم يتمالك نفسه، تدافعت الذكريات في رأسه. نظر إليه شيان بتعاطف، لم يجد ما يواسيه به، بلع ريقه بصعوبة حين أكمل عبد الولي قصته:

- " في فترات السجن السابقة.. شخصياً لم أكن أتعرض للتعذيب.. ولكني سمعت وقرأت عن الكثيرين ممن انتفضوا ضد الظلم والطغيان.. كيف تعرضوا للتعذيب

والإذلال الشديد في السجون الصينية.. ولكن هذه المرة ذلك اللعين جردني من كل ملابسي ثم جعلني أمشي مثل الحمار وبدأ في الضرب على مؤخرتي _أسلوب صيني قديم لتعذيب المحكومين_ عضضت على شفتاي حتى أدميتها.. كنت قبل ذلك أتصور أساليبهم في التعذيب ولكن ليس بهذا الأسلوب.. بادرت بستر مؤخرتي بيدي.. بينما بدأ السجنانون في ضحك هستيري.. أما أنا فكنت أرتعش من الغضب والقهر.. بالكاد كنت أرى وجوه السجنانيين.. كانوا يتفوهون بأفحش الشتائم الصينية.. «وسخ»، «غثيان»، كانوا يأمروني بالقفز أو الانحناء وأنا في تلك الحالة.. وذلك السجنان ذو الوجه الشاحب.. أفتطس الأنف.. بدأ يدقق وكأنه يبحث عن إبرة بين رجلي.. ثم أمر الآخرين لإزاحة يدي التي أمسكت بها أمامي.. وركلني بركبته عدة مرات... كان أمرًا فوق كل تصور.. ".

- " آسف لتذكيرك بهذا الأمر.. عليك مقاومتهم بفضحهم مهما ألمك ذلك.. أعتذر مجددًا.. " لم يعد لشيان طاقة في جمع غضبه وانفعاله، سالت عينيه بسخاء، لم يرفع يده ليمسح دموعه تركها تسيل علها تغسل قلبه اللاهي. بينما هو يسرح ويمرح في مقاهي بكين، هناك ما يقارب مليون شخص يعذب بدون أدنى إنسانية في السجون النازية.

- " لم أشأ أن أحكي لرفاقي ما حدث.. وإذا حكيت لهم ما كنت أملك دموعي.. سألت أحمد قاري عن مدته في السجن.. فأخبرني أنه مضى له في السجن سبعة شهور.. «سبعة شهور!» وقع على سمعي كأعداد لا نهاية لها ولا يمكن عدّها.. قبل أن يستكمل حديثه ثانيًا جاء الصراخ من مكبر الصوت الموضوع فوق رؤوسنا «أخرسوا، وإلا سأخرسكم أنا». وبعد وقت قليل انطفأ النور ولكن اشتدت الرائحة الكريهة المنبعثة من الحفرة.. فأكملت حديثي مع رفيقي أحمد قاري متهامسًا.. عرفت أن أحمد قاري من مدينة كاشغر.. وبينته تقع على قرب من المدرسة الأويغورية التي كنت أنوي افتتاحها.. ألقى القبض عليه بسبب تدريسه الدين للأطفال في قارغليق _محافظة تابعة لكاشغر تقع على بعد حوالي

250 كيلومترا.. لم يمض على زواجه مدة طويلة.. رزق حديثاً بمولود.. ثم حدثته عن سبب دخولي السجن.. لم يسبق له أن سمع عني وعما قمت به.. ولذلك لم يبد عليه التأثر كثيراً ثم قال: «إذن سيفرجون عنك قريباً».. وفي اليوم التالي لما سمع أنهم ينقلونني إلى سجن مدينة أورومتشي قال بنبوة جازمة: «سيفرجون عنك».. والسبب في رأيه أن الملابس التي ألبسوني إياها ليست من اللون الأصفر الذي يلبسونه السجناء السياسيون عادة.. فلم أخبره أنني حتى لو لم ألبس ملابس السجناء السياسيون.. فإن الذين ألقوا علي القبض لم يكونوا من الشرطة المحلية.. بل عملاء أمن الدولة من أورومتشي.. وفي اليوم التالي وبعدما صلينا الفجر إشارة أي بدون حركات فقط بالإصبع.. بدأ أحمد قاري في قراءة القرآن سراً.. أما أنا وبعد انتهائي من الصلاة قرأت كل ما أعرفه من قصار السور وما أن انتهيت حتى شعرت بانقباض في صدري.. هذه الحجرة من غير نافذة كانت تضيق نفسي.. وكأني غطيت بكيس على رأسي.. تميت لو أتي أحفظ القرآن كرفيقي أحمد قاري.. فأخفف عن ضيقي بآياته..". أرتشف من قهوته التي أصبحت باردة كبرودة قلبه من صقيع الذكريات، تتم بكلمات الحمد، ونظر إلى عيني شيان بعزم وإصرار مستشعراً روح المقاومة التي تلتهب بين أضلاعه.

- " بعدما أطلقوا سراحني.. فكرت في أول صاحب لي في السجن أحمد قاري.. فقد أخبرني أن زوجته وأمه التي تجاوز عمرها الستون كانتا تقيمان معاً.. وعندما سمع أنني سأخرج من السجن طلب مني أن أوصل كلاماً لزوجته.. فقال إن زوجة المسجون إذا طلبت الطلاق فإنهم يسمحون لها بزيارة زوجها.. فهو كان يريد استغلال هذا الأمر حتى يتمكن من لقاء زوجته ويرى طفله الذي ولد في غيابه.. في الواقع في كل غرفة من غرف السجن الذي أودعوني فيه.. كانت هناك لوحات معلقة.. مكتوب عليها ما يسمى بـ«حقوق السجن» باللغة الأويغورية والصينية ويخط كبير.. وكان لزاماً على كل سجين حفظها.. ومن ضمن هذه

الحقوق حق الزيارة للأهل.. ولكني لم أر أي شيء واقعًا عمليًا من تلك الحقوق.. ولسوء حظي وعلى عكس ما توقع أحمد قاري بقيت في السجن مدة.. أما هو فربما كان محظوظًا واستطاعت زوجته زيارته.. على كلٍ عذمت على زيارة والدته وإبلاغ كلامه لزوجته بغض النظر عما حدث بعد الإفراج عني.. وصلت لقرية أحمد قاري ووجدت الجميع هناك حاضراً في مجلس القرية للاجتماع السياسي.. أول ما وقفت أمام الباب جاءني شخص يحمل سلاحاً.. كان علي أن أخبره سبب الحجيء وإظهار بطاقتي الشخصية له.. ولكن تعريفي بنفسي وسبب مجيئي كانت مخاطرة كبيرة.. فإن أعطيت له بطاقتي الشخصية سيضعها في الجهاز ويكتشف أنني سجين سابق وقد يحسبوني مرة أخرى.. أعرف هذا لأنني بعد عشرة أيام من خروجي من السجن تعرضت لموقف مشابه وحيست لعدة أيام وتعرضت للتعذيب.. فكذبت عليه وقلت إنني مسؤول حكومي للقرية المجاورة.. فأخبرني أن علي تسليم البطاقة الشخصية من أجل الدخول للمجلس.. فتظاهرت بأني منتظر لشخص أمام الباب.. وبداخل المجلس كان الناس مشغولين برقصة «التفاح» الجماعي _رقصة صينية غنائية تؤدي بشكل جماعي وهي إحدى أساليب الحزب الشيوعي لغسيل الدماغ_ وبعد انتهائها بدأوا في أداء الأغاني بشكل فردي.. وعرفت من أحد أعضاء حراسة الذي يمسك هراوة كبيرة أن الذين يغنون بشكل فردي هم أعضاء أسر تحت المراقبة يختبر ولانهم بهذه الطريقة.. فسألته إن كان من بينهم شخص اسمه أحمد قاري.. فألقى علي نظرة شاملة ثم أشار إلى امرأة في الداخل على أنها أمه.. فرأيت امرأة مسنة لابسة ملابس ممثلي المسرحية الصينية ووضعت مكياجاً مكثفاً.. ووردة صناعية فوق أذنها وكانت واقفة ترتعش.. عاجزة عن الكلام.. ثم أمسكت بيدها المايكروفون وقالت بصوت متقطع سأغني لكم أغنية «الزمن الحر» _أغنية صينية دعائية للحزب الشيوعي_ لم يصفق لها سوى عدة مسؤولين من الحزب الشيوعي.. ثم تمتعت أم أحمد قاري عدة مرات لبدء الأغنية ولكأنها

لم تستطع.. ثم فجأة بدأت في لطم نفسها باكية صائحة «يا ويح نفسي، ليتني مت قبل هذا، ليتني مت قبل هذا، ليتني لم آت لهذه الحياة، ليتني لم أولد».

بالكاد تماكنت دموعي وعرضت على شفتي ونظرت إلى شرطي يمشي غير بعيد مني ماسكا سلاحه.. لو خطوات ناحيته لأخذ سلاحه لكان واضحاً أنه سيطلق علي النار قبل أن أصل إليه.. على كل حال لم يبق في حياتي إلا أن أخطو هذه الخطوة.. لكنني فشلت.. لم تخرج المرأة إلا وهي في حالة إغماء.. انسحبت بهدوء.. أجز ذيل الفشل والقهر معاً.. " ارتشف قليلاً من الماء وبعد صمت لمدة من الوقت أكمل السرد:

- " ثم بعد انتقالني لسجن (تانري تاغ).. تذكرت تنبيه أحمد قاري دخلت للحجرة قائلاً: «baogao» ولكني لم أسلم من الضرب. لأنني نسيت وضع يدي على رأسي، ما أن قال الصيني الواقف على باب الحجرة «امسك رأسك» جاء سجين أوغوري وبدأ بضربي.. "
- " إذا أدخلت إلى السجن مرة أخرى؟؟ .. " سأل شيان. كان يدون بعض المعلومات على ورقة أمامه.
- " نعم.. أعلم؟؟ في عمري البالغ أربعين عاماً.. لم أعرف أن هناك في لغتنا ألفاظاً تمثل هذه الحقارة والبداءة.. لم أفهم لماذا يضربني ويهينني ويسبني بهذه البداءة.. ضرب السجنان في السجن السابق بكاشغر كان مفهوماً لأن الضرب وظيفته.. ربما رأي «انفصالياً» أو «إرهابياً» فضربني وأهانني.. ولكن ما الذي فعلته لهذا السجين الأوغوري؟؟.. والأعجب من كل ذلك.. هذا المعتوه كان يخاطبني بالأوغورية ويطلب مني الإجابة بالصينية.. " ضحك عبد الوالي بسخرية، ضحك وخلف اهتزاز جسده هشاشة في عمق روحه " وأحياناً يغضب لعدم إجابتي بالأوغورية.. وفي هذا السجن الجديد كانت دورات المياه منفصلة.. إلا أنها حُولت لسلخانة لتعذيب السجناء.. شهدت على وقائع تعليق السجناء وضربهم.. وبعد مضي ساعة ناداني صيني كان يرقد أمام الباب.. ذهبت إليه

قائلاً «baogao» كما لقنوني، ووقفت رافعاً يدي؛ فسألني عن سبرتي وتعجب لأنه لم ير في حياته سجيناً سياسياً صاحب تعليم عال مثلي.. وعرف عن نفسه بـ«يانج يونج» وكان رئيسنا في الحجرة.. وهذه الحجرة جمعت 17 سجيناً، أربعة صينيين، اثنين من مسلمي الهوي، وواحدًا قازاق، والبقية من الأويغور.. الصينيون دخلوا السجن بجرائم النصب والرشوة.. وأما الهوي فجرائمهم الإتجار بالمخدرات والأويغور إما تعاطي المخدرات ومعظمها تم ملفقة وإما سجناء الرأي والسياسة.. وفي السجن توجد منصة خشبية مخصصة للنوم.. الناحية الأبعد عن دورة المياه كان مخصصاً للصينيين.. يليه مكان الهوي ويليهم فرهاد الذي ضربني.. ويليهم بقيتنا نحن الأويغوري أقرب لدورة المياه.. عندما يحين وقت النوم.. يقوم أربعة من الأويغور بالتدليك للصينيين الأربعة حتى يناموا.. هؤلاء الأربعة الصينيون والاثنان من الهوي حجزوا لأنفسهم أريح وأوسع الأماكن.. والبقية ننام على الجنب في مكان ضيق متلاصقين.. والسجناء السياسيون وأمثالي في أول أيامهم كانوا مضطرين للنوم على الأرض.. وهي غالباً ما تكون قرب دورة المياه.. حتى الأكل يجب أن نأكله قرب دورة المياه.. وفي الليل يقوم اثنان بالحراسة متبادلين الأدوار في كل ساعتين.. والذي يقوم بالليل في الحراسة يكونون أيضاً من الأويغور ومن السجناء السياسيين.. النقود المرسلة من أهل السجناء يتم إيداعها في الكروت المخصصة لشراء الطعام.. يمكن شراء بعض الأطعمة، والبيض، والشوكولاتة، اللبن، بعض أنواع الفواكه والملابس الداخلية.. ولكن يتحكم فيها الصيني رئيس الغرفة.. وفي السجن يعطى السجن الأرز بالماء المغلي صباحاً.. والفلفل الأحمر بالماء المغلي الذي نسميه شوربة العذاب ظهراً ومساءً.. وأحياناً قليلة يمكن طلب أطعمة بالخضروات والزيت.. طبعاً يطلبها رئيس الغرفة الصيني على حساب السجناء الأويغور ونقودهم.. فالصيني يفطر على اللبن والشوكولاتة والمربي، ويشترى السيجار من السجناء.. والخادم الأويغوري يتوسل لسيدة الصيني حتى يحظى بوجبة جيدة

ولو لمرة واحدة.. الأويغوري كان يأتيه من أهله نقود أكثر.. ولكنه يكون آخر شخص يستفيد منها.. وأنا عرفت كم دخل من النقود في كرتي.. وكم أنفقت منها بعدما انتقلت إلى سجن آخر.. إن حياة الأويغوري في الشارع هي حياته في السجن.. إن أي وطن مقهور بلا حقوق.. يكون أفراده بلا أي قيمة ولا أي حقوق.. لقد بقيت في سجن أورومتشي ثلاث سنوات.. في كل سجن يكون المسؤول الأول صينيًا والنائب أويغوريًا.. وفي كل حجرة السيد والامر هو السجين الصيني والمنفذ أويغوري.. الصينيون في السجن شجعان.. كلمتهم مسموعة.. والأويغور كلمتهم مردودة وجبناء وخائفون.. السجين الأويغوري يضرب أخاه الأويغوري أكثر مما يضربه الصيني إرضاء لسيده الصيني؛ لأنه لا يعتبر إظهار ولائه بضرب الصيني.. بل بضرب أخيه الأويغوري.. فهو حينئذ يكون مخلصًا وفياً لسيده.. يثبت أنه غير عنصري.. صيني أكثر من الصينيين.. وإذا كان النائب في الغرفة صينيًا أيضًا.. فإن لم يكن له عداوة للأويغور لا يضربهم بقسوة؛ لأنه ليس بحاجة لإثبات ولائه وإخلاصه لسيده.. لقد أفصح عن هذا الأمر فرهاد.. النائب الذي ضربني قائلاً: «اسمع، أنا أيضًا بلا حيلة، ليس من السهل أن أحافظ على مكاني، فإن لم أضربك أكثر من ضربي للصيني، كبير الحجرة «لاودا» سيظن أنني أميل للأويغوري أكثر».. هكذا هي حياة الأويغوري.. فهو يتعرض للإهانة من الشرطي والسجين الصيني رغم جرائمه.. ثم يتعرض للضرب والإهانة من أخيه الأويغوري ضرب الولاء والإخلاص.. هذه هي الحكاية باختصار.. " تنهد عبد الولي ثم أخذ أمتعته وخرج من الفندق، خرج راکضاً كأنه لا يريد من شيان أن ينظر إلى وجهه وهو يكتوي بسيطا الذكري. السجن لا يُخرج أحداً كما دخله.

- " حق الضحية المسلوب.. ووجه الجاني المدهون بالعسل.. كل شيء يتضح" كان شيان يحادث نفسه، ليلك لم تكذبه القول إذًا، لكن أباه كان يفعل. كازاخستان

كانت جوابًا شافيًا للكثير من الأسئلة، هناك قصص لأشخاص مختلفين في مكان آخر قرر شيان أن يكون آخر محطات رحلته.

الشمس تودع السماء، تخفت شيئًا فشيئًا، تجر حرارتها ليأخذ البرد موقعه. خرج شيان من الفندق قبل غروب الشمس بلحظات، أراد أن يستمتع بمنظر طبيعي جميل يخفف عنه وطأة الأحداث المبهالة عليه كلدغ العقارب. من جو ألماتي الساحر بحث عن دواء لأرقه، سار بخطوات متقاربة صغيرة، حتى وصل إلى مسجد كبير ذا مبنى كازاخي عتيق، يجمع المسجد بين تقدم الحاضر وأصاله الماضي. لأول مرة يرى شيان عددًا كبيرًا من الناس يقومون بأداء طقوس دينية دفعة واحدة. هذا المسجد صمم ليستوعب 7000 مصل، تعلوه قبة زرقاء كأنها قطعة من السماء، يدعونه بالمسجد المركزي. كان للأذان وقعًا مختلفًا على قلب شيان، سبح في مقاماته بانسجام، ترتيل الآيات في الصلاة، الله أكبر التي تردد بعد كل ركن. لقد أسرت هذه الأشياء روحه، ظل يحرق في الخارجين من المسجد، يرى الطمأنينة في وجوههم، هذا الطهر يغزو قلبه بهدوء. تردد كثيرًا قبل دخوله للمسجد لكنه عزم أمره، خلع نعليه كما يفعل المصلون، دفع برجليه حتى وصل إلى منتصف المسجد الفارغ نسبيًا، اقترب من الخراب في واجهة المسجد، تماكنت قواه، جثم على ركبتيه وطأ رأسه، شعر بالانكسار الجابر، بالضعف القوي، بالوهن المتين، أنسال الطهر من عينيه دموعا رقراقة، ظل هكذا فتره. اهتز هاتفه المحمول في جيبيه، كفكف دموعه، وخرج من المسجد.

- " أهلاً.. شيان كيف حالك؟؟؟..".

- " ليلك.. " قال بدهشة لم يكن رقمًا محفوظًا.

- " هل هناك أمرًا ما ؟؟ لم صوتك واه؟؟؟.. " تسألت بقلق.

- " إنها الكوايبس يا ليلك.. أصبحت لا أستطيع النوم.. يبدو أن رحلتي

هيجت مشاعري أكثر.. لا أنفك عن رؤية الكوايبس في أول لحظات نومي..

أحياناً حتى في يقظتي.. أسمع صوت بكاء.. ضرب.. صورة والدي.. أحلم بأي
أقع.. شجرة كبيرة.. ظلام مع صدى صراخ.. لقد تعبت.. كلما توغلت في
سماع القصص الأليمة تزداد كوابيسي ويزداد شعوري بالتبه.. أشعر بظلمة كبيرة
في عقلي.. " سرد شيان مخاوفه لليلك. في حضرتها يشعر بالأمان، كان يروي لها
عن كوابيسه المزعجة، لم تكن كثيرة في الماضي لكن الأمر يتطور مع الوقت.
- " أعلم ذلك.. " ردة فعلها أثارت استغرابه، لم تطمئن كعادتها، لم تخبره أنه
مجرد ضغط، ذكريات أليمة عن أبوه غريب الأطوار ستزول مع الوقت " أريد أن
ألتقيك قريباً.. " نبرتها جادة.

- " سأذهب غداً إلى تركيا.. هناك تنسيق بين منظمة أتاجورت في كازاخستان
ومنظمات أخرى في قيصري.. للعمل بشكل أكثر تنظيمًا وجدية.. سيذهبون
بوثائق لقصص أشخاص.. "
- " حسناً.. حسناً.. " قاطعته قبل أن يكمل ثم أنهت الاتصال.. شعر شيان بأنه
قد استرسل كثيراً.

تحت ظلمة الليل والإنارة المتدلية من أعمدة الكهرباء، سار شيان في العاصمة التجارية
الكازاخية، يجمع أطراف الأحجية، يقلب المعادلة في رأسه، يرتب الأمور، يتسلسل بكل
الأحداث التي عاشها، يتذكر المقالات في الصحف، يسترجع كتب التاريخ، كل الأمور التي لها
علاقة بالقضية الأيغورية. الصين بدت قبيحة جداً في عيني شيان، شعر بأنها تشبه والده كثيراً.
السيطرة، الظلم، سرقة الحقيقة، لقد سرق منه حقيقة والدته التي لا يعرف من هي أو كيف
ماتت. وقف أخيراً أمام المستشفى الكبير في المدينة، ينتظره خضر أوروزلي ومسلم هنا، لديهم
فار من المعسكرات التأهيلية، صحته غير جيدة. اتخذ شيان السلام صعوداً حتى وصل للغرفة
المتفق عليها (18).

- " تفضل يا شيان.. ادخل.. " قال خضر حين لمح شيان أمام الباب.

- " لا بأس.." قال شيان للرجل النائم على السرير. كان وجهه ملفوفاً بالضمادات البيضاء.

- " المهم أن يشفى قلبه.." قال مسلم الجالس أمام المريض، يشد على يده ويطبطن عليها برفق" لقد أجرى عملية تجميل لوجهه.. لقد شوى الأوغاد وجهه بالمياهم حتى فقد ملامحه.. ظنوا بأنه قد جنَّ لذا حاولوا التخلص منه قذفوه بالعراء .. لكنه نجى.. والحمد لله.. "

- " ما اسمه؟؟ .." سأل شيان وهو يأخذ كرسي ليجلس قبالة رأس الرجل الملقى على السرير.

- " ستوق.." بادر خضر بالإجابة.

- " لم اسمع بهذا الاسم ..".

- " ستوق بغراخان .. كان قائداً كبيراً.. عندما أتى المسلمون إلى تركستان وبلاد ما وراء النهر.. لم يأتوا بالسيف بل بالمعاملة الحسنة.. انتشر الإسلام ولكن ببطء.. أما ستوق بغراخان عندما يقرر فإنه يحدث قلبه تاريخية عظيمة.. القائد الصالح يا شيان يتبعه شعبه.. يناصروه ويؤازروه.. عندما أسلم ستوق بغراخان في عام 23 هـ أسلمت 200 ألف عائلة في تلك المنطقة مما يعني قرابة المليون شخص.. "

- هذا عظيم!.. أن يدخل هذا العدد من الأشخاص في دين ما دفعة واحدة.. هذا يعني أنه يتصف بالحقيقة بما يكفي ليسحر به عقول الناس.. "

- " إنها الفطرة يا أخي.." قال مسلم بابتسامة دخلت إلى قلب شيان. نبض قلب شيان بقوة، أسرته كلمة يا أخي لأول مرة يسمعها تقال له، هو لا يعرف أحمًا أو أختًا، (أخي) ردها في سره بشيء من اللذة.

الضجيج مرتفع، الأيدي تتحسس الجسد المتهالك، مسلم يضغط على اليد اليسرى برفق، خضر يقف على حافة السرير يراقب حركة العينين، الأكسجين موصول بالرئة المختنقة، صوت صفير الأجهزة، ترصد نبضات القلب.

- " لقد تعرض لصدمة.. " قال الطبيب بعد أن خرج من الغرفة المزدهمة بالأطباء والممرضين.

- " هل هذا خطير؟؟.. " سأل مسلم بقلق.

- " على الأرجح سيستعيد نفسه بعد ساعات قليلة.. " .

ركض مسلم باتجاه شيان المنهك، نظر إلى يديه المرتجفتين، تعرق جبينه، شعر بالعطف تجاهه، ألمته نظرة الوهن في عينيه، لقد جحظت عيناه كثيراً وغلفهما السواد. لم يكن كذلك عندما رآه أول مره، كان نشيطاً يدون القصص، يستفسر من الناس، يريد أن يدخل إلى قلوبهم ويخفف عنهم.

- " لا تقلق.. سأدعو الله كي يشفيك.. ستم عملك على أكمل وجه..

وستكون صحتك ممتازة.. " كان مسلم يمرر أنامله على وجه شيان الدافئ بفعل الحمى، أنامل مسلم الباردة اطفأت شيئاً من هيب شيان.

*

*

*

الفصل التاسع

لفت حجابها باعتزاز، لبست المعطف الطويل الذي يشبه لون السماء، ظلت تتأمل نفسها بالمرآة، تذكرت آخر مرة وضعت فيه الحجاب على رأسها، كانت صغيرة جدًا، عندما كانت تجد طريقًا لاختلاسه من دولاب أختيها، كانت ترتديه بطريقة غير منتظمة، تنزل إلى الصلاة، تتجمع حولها الأعين، ثم تسمع عبارات الثناء من أمها " لقد كبرت.. ما شاء الله أصبحت جميلة.."، ثم تفر من عقوبة أختيها لأنها عبثت في الدواليب الخاصة بهما، تركض إلى الشارع وهي تثبت الحجاب بيديها، حتى تصل إلى الشجرة الكبيرة، تجد إسماعيل يحمل عصاه المحددة ويهزها كالسيف في وجه الشجرة " ماذا تفعل؟؟ .. " تسأله بفضول " أتدرب على القتال.. لا أريد أن يأتي الجنود ويأخذوا أُمي.. عبد الله منشغلًا كثيرًا.. قال لي بأن أحميها في غيابه.. أريد أداء مهمتي على أكمل وجه.. " كان يدهشها إسماعيل بأجوبته دائمًا. تشعر بأنه رجل كبير، بينما هي تفكر في أمور طفولية جدًا " كيف أبدو؟.. " سألت بيأس فهو لم ينظر إليها، ظلت عيناه مثبتتان على جذع الشجرة الصلب " تشبهين تركستان.. " ، " كيف؟؟ " قالت بحلق " لا أعلم.. هذا التشبيه يناسبك جدًا.. هل تريد أن تلعب بالأرجوحة؟ .. " ثم أخذ يأرجحها على الإطار الكبير، حينها لعبت كثير، كانت تستمتع جدًا بهذه الأرجوحة. تشتم رائحة خبز خالتها التي تخرج من نافذة المطبخ. نظرة في مرآة قد تحيي آلاف القصص.

- " لقد تأخرت.. السيدة نور الله تنتظرن في المهرجان.. " دخلت خاتون على عجل، تلف حجابها بشكل كامل، تتوشح بشال سماوي كلون معطف ليلك. كأهما أرادتا أن ترتدي ألوان علم وطنهما، أن تكونا قطعًا من السماء كما هي تركستان.
- " أنا قادمة.. " أجابت ليلك بحماس.

أناشيد وطنية أيجورية تصدح في ساحة كبيرة، الكثير من البشر يدخلون من بوابتها الواسعة، ملصقات تنتشر في الجدران، مكبرات الصوت تنتشر في الأرجاء،

أطفال صغار يرسمون على وجوههم العلم التركستاني، بالأبيض والسماعي يلونون وجوههم، يحملون بالونات سماوية كذلك، رايات بلون النقاء ولون الحياة ترفرف هنا وهناك. على الطاولات الممتدة ترتصف الأطباق المليئة بالطعام البخاري، أطباق المنتو واللغمن وغيرها من الأطباق. هناك أطباق مخصصة بالحلويات. في القاعة الداخلية يوجد بازار تُباع فيه بعض المصنوعات التقليدية الملابس المطرزة يدويًا والقبعات المصنوعة بأيدي أيغورية المعلقة في الجهة اليمنى من القاعة. تعرض بعض الصور ومقاطع الفيديو التي تنقل صوت القضية. الحضور من جنسيات مختلفة متفاعلة مع القضية الأيغورية؛ فمن لا يعلم الحقيقة يعلمها من أفواه جوعى الوطن. يقف خضر أوروزلي يتحدث مع رئيس المبادرة التعريفية الأستاذ حميد جوكترك.

- " هل تقومون بهذا بشكل مستمر؟ .. " سأل خضر.
- " نعم.. نقيم العديد من المهرجانات التعريفية بالقضية الأيغورية.. يتفاعل الناس بشكل كبير.. نكتشف يوميًا أن هناك شريحة كبيرة من الناس لا يعرفون أو قل لم يسمعو حتى.. بتركستان وأهلها والمعاونة الممتدة من عشرات السنين.. لكنهم عندما يعملون يبدون تأثيرًا ملحوظًا.. نحن هنا نصنع الوعي.. يا سيد خضر..".
- " الوعي أول الأسلحة.. " أضاف مسلم الواقف بجانب خضر.
- " القضية الأيغورية قضية.. إنسانية.. وطنية.. دينية.. قضية أكبر من أن تطوى بلا مبالاة.. " بادر شيان بالمداخلة، كان يحمل أوراقه ويدون بعض ما يقوله الأستاذ حميد.
- " هو ذاك.. " قال حميد. تلفت قليلًا ونظر لأحد الشبان من اللجنة التعريفية الثقافية، يلتف حوله مجموعة من الناس، يحدثهم عن العادات الأيغورية:
- " أخرج لكم من الذاكرة الأيغورية.. بعض قصص التراث في بلادنا ومنها مراسيم الزواج.. وهذه المناسبة السعيدة يسمع بها القاصي والداني فين شعب الأيغور لحمة عجيبة.. يفرحون معًا ويحزنون معًا كالجسد الواحد.. مراسيم الزواج

تبدأ بتوجه إمام جامع الحي مع المصلين بعد صلاة الفجر لتناول الطعام في بيت العروس.. فيتناول الرجال طعامهم بالآلاف ثم ينصرفون.. لتحضر النسوة ويتناولن طعامهن.. ثم يتوجه العريس بعد ذلك مع أصدقائه إلى بيت العروس بعد صلاة الظهر فتكرمهم العائلة بالطعام على وقع الموسيقى الإيغورية.. ويمضي العريس عدة ساعات في بيت نُسبائه ويغادر صحبه لتحل مكانهم النساء مرة أخرى.. ثم يأتي الرجال مجددا لزفة العروسين إلى بيت الزوجية بالتكبيرات والتهليل..".

- " هذا جميل!.." قال شاب تركي.
- " لقد أثرت مشاعرنا يا بني.. تذكرت يوم زفافي.. نعم كنا نفعل هكذا في الماضي.. الآن قد تغير الوضع.. يجذون الأعراس المسائية.." قال رجل مسن يتكأ على عصاه.

قلبها يرقص مع الكلمات و الألحان الأيغورية، لقد سمعتها قبل أثني عشر سنة من الآن.

- " هذا واجبنا يا خاتون.. نريد أن نستفيد من علمك الواسع بالأدب الأيغوري.. نحتاج أن ننقله للناس عبر المتعمقين فيه.. " ثم التفتت إلى ليلك " وأنتِ يا جميلة لا بد أن تخدمي القضية بتخصصك في الإعلام.. الإعلام هو صانع الوعي.. ما وصلنا إلى هذا الحال إلا من قلة الوعي.. وعدم تسليط الضوء على قضايانا..".

- " أنا أسعى لذلك.. أأخذ من تخصصي سلاحًا لأناضل به من أجل موطني.. مهما كان الثمن..".

- " الكلمة التي تروى بالعرق والدم.. وحدها التي تزهر كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين.. لا تنسي ذلك.. " أومأت الفتاة برأسها ثم ضغطت بشدة على حقيبتها. لقد مست السيدة جرحها، إنها تعمل ليل نهار لتصل كلمتها، ليكون مشروعه شوكة في حلق محتل أرضها مهما كلفها ذلك من ثمن. قلبت نظرها بين الحضور " لا بد أنه هنا.. " بين الجموع الكثيرة وجدت شيان يستمع للسيد حميد بتمعن، وبدون وعي ركضت نحوه.

- " لقد وجدتكَ أخيرًا.. " صوتها مليء بالحماسة.

- " ليلك !!.. " قال بترحيب كبير ووجه طلق. لم يستغرب وجودها كثيرًا، فقد بلغها من قبل بأنه سيكون هنا، فأصرت على المجيء، حاول منعها لكنها أبت. قالت: " الأمر مهم جدًّا ولا يحتمل الانتظار".

- " أنت ترتدين الحجاب.. " كان يتسم وهو ينظر إليها، لم يألّفها هكذا. أين شعرها البني المنساب كالقهوة؟؟ كان أمرًا غير متوقَّعًا بالنسبة له.

- " هناك أمر أهم من هذا لدي الكثير لأقوله لك.. " تكلمت بجدية، نظرت في الأرجاء محاولة إيجاد مكانًا شاغرًا، لم تجد " شيان لا بد أن نذهب إلى مكانٍ ما.. سأريك شيئًا.. ".

- " حسنًا في باحة الفندق الذي أنزل فيه.. أنا أيضًا أحمل الكثير.. لم أتصور يومًا بأن أهتم بقصة ما إلى هذا الحد.. " كان يحدثها وهما يمشيان بسرعة خارج المكان " أشعر بأني حي ليلك.. أنا على قيد الحياة.. أصبحت أملك إجابات أسألتك لي.. لما أنت تعيش؟.. تلك الأسئلة التي حرقت فؤادي بها جعلت مني لا شيء يومها.. أيضًا وجدت معنى كلام خاتون في منزلكم في ذلك اليوم.. لا بد بأن تلجأ لقوة فوق بشرية.. أنا أجد القطع التي تنقصني.. الصورة بدأت تكتمل.. وجدت القليل مني والكثير من تركستان في رحلتي هذه..".
- " هذا جيد.. أنت تبلى حسنًا..".

*

*

*

بركة صغيرة فيها بطة تطفو فوق الماء كملكة، ومن خلفها صغارها، بجانب البركة الكثير من الطاولات الدائرية، الأشجار تنتشر في باحة الفندق بشكل كبير، تشعر وكأنك في غابة مصغرة، رائحة الشواء تزيد من هذا الشعور، الشمس الدافئة تعدل جو الشتاء البارد. تجلس ليلك على مقعد بجانب البركة، تتأمل البطة وصغارها، مقابلها شيان يرتب أوراقه، يريد أن يري ليلك ما وجدته، ما أنجزه في رحلته الطويلة.

- " ليلك أنظري.. هذه بعض القصص دونتها بشكل مختصر.. " تناولت منه بعض الأوراق.

((1- فر عزيز منذ حوالي عام إلى تركيا بعد تلقيه مكالمة هاتفية من مركز شرطة محلي بضرورة تسليم نفسه فورًا، وقال في مقابلة مع "أسوشيتد برس" إن نصف جيرانه زج بهم في مراكز التحقيق أو السجن، وصل به الإحباط واليأس إلى أن تمنى لو أنه لم يولد من أبناء الأويغور ولا في هذا الإقليم.

2- عادل دليكان، الذي يعيش في ألماتي، عاصمة كازاخستان، قال: إن ابنه عندما كان بعمر خمس سنوات، أجبر على الذهاب إلى مدرسة تديرها الحكومة من الاثنين إلى الجمعة، رغم أن لديه أقارب يمكنه البقاء معهم. تم نقل الابن إلى مدرسة داخلية بعمر تسع سنوات، وكان يعود للأسرة خلال عطلات نهاية الأسبوع والأعياد فقط.

3- ديلنور (35 عاما) طالبة تعيش في اسطنبول، قالت إن المسؤولين يزورون حضانة طفلتها بانتظام، ويسألون الأطفال عما إذا كان آباؤهم يقرأون نصوصاً دينية في المنزل أو يقومون بأية أنشطة دينية. أما عن تبعات تلك الأسئلة، تقول ديلنور إن السلطات الصينية اعتقلت رجلا لأن حفيده أبلغ المعلمين أن جده زار مكة.

4- عبد الرحيم أمين (42 عاما) الذي يعيش في اسطنبول منذ عام 2014 لديه أربعة أبناء، اثنان منهم قضايا في حادث، ولا يعرف أين يعيش الآخرون لديه أيضا ابنة عمرها 14 عاما أجبرت على الالتحاق بمدرسة ثنائية اللغة في 2015. في المدرسة التي زارها مراسلو الوكالة مكتوب على أحد الجدران: "يرجى التحدث بلغة الماندرين عند دخول ساحة المدرسة، لا يرغب الرجل في الاحتفاظ بصور ابنته التي ترسلها إليه حتى لا يتألم أكثر. وقال: "نحن نموت كل يوم .. لا يمكننا رؤية أطفالنا، لا يمكننا رؤية والدينا. هذا تعذيب أبدي".

- " هذا مؤلم جداً.. " قالت ليلك بأسى، تنهدت أخرجت من جوفها تنهيدة عميقة، تكاد تخرج ملطخة بالدم " شيان.. " قالت بصوت خافت. ركز الشاب فيما تقول بعد أن كان منشغلاً بأوراقه يريد أن يريها أكبر قدر ممكن من المعلومات المرصودة في ملفاته " وصلتك رسالة من والده جيو.. ".

اتسعت حدقت عينيه فجأة، ناولته ليلك ظرفاً ورقياً، فتحه على عجل مزقه من الأعلى، تصرف بانفعال، ظن بأن جيو قد أصابه مكروه ثم أخرج أوراق مطوية قرأها بشكل متتالي.

- " أهلاً.. شيان.. سأقول لك من أنا.. ربما لا تعرفني بأني والدة جيو.. لأنك قد أحببتني كالحالة كيلا التي عملت في منزل والدك..

لقد أحببتك كأبني تماماً ربما قضيت معك وقتاً في طفولتك أكثر من طفلي الذي أنجبته (جيو).. لقد عانيت كثيراً في صغر.. لقد كان الجنيرال فظاً غليظاً معك.. أتذكر تلك الليالي التي كنت تنام فيها دون عشاء كعقاب.. أتذكره يشرب حد الثمل ثم يستعرض قوته على جسدك الغض الصغير.. لقد بكيت كثيراً من أجلك..

شيان.. اعلم أي لسْتُ لطيفة للحد الذي تظن.. إن أكبر ذنب يرتكبه الإنسان هو الكذب.. لقد كذبتك القول.. حين كنت تسألني عن والدتك كيف كانت؟ هل كانت جميلة؟ كيف ماتت؟.. كنت أكذب عليك حتى لا تحزن.. أظنك كنت تشعر بذلك.. كنت ذكي للحد الذي لم تصدق فيه كلامي الزائف.. كنت مضطرة لهذا صدقي..

لقد أصابني المرض.. وأظن بأني سأموت قريباً.. الذي تعرفه عني أنه قد جاء بي الجنيرال لأعمل في منزله.. أخدمه وأخدمك أيضاً.. كنت أظن أن حاجتك للطعام والشراب هي كل شيء لكن حاجتك للحقيقة التي أخفيتك عنها كانت أشد فسامحني..

لكن دعني أنطق بما الآن.. الحقيقة هي كالتالي.. كنت امرأة فقيرة فوجدت عملاً في معسكر صيني.. أطهو الطعام وأنظف المكان.. كان الجنيرال يومها رئيس حملة في إقليم شينجيانج.. كانت الحملة عبارة عن أخذ بعض من أطفال الأيغور من داخل الإقليم.. بعد أخذهم كانوا يأتون بهم إلى مدن صينية ليعيشوا في دور الأيتام.. عندها كنت في سن الرابعة.. لقد تم أخذك من عائلتك الأيغورية من مدينة كاشغر..

لم أكن أعلم هذا في بادئ الأمر كان الجنيرال يخفي عني قصتك الحقيقية.. علمت منه أن أمك تخلت عنك وذهبت.. لكن في مرة من المرات.. كنت تبكي بحرقة أردت أن تعلم أين هي أمك.. قلت لي حينها هل يمكن أنها تخلت عني وذهبت!!.. استثارت كلماتك أمومي.. أنا تركتُ جيو الصغير والذي يصغرك بأشهر فقط في قريتنا النائية لأنني لا أملك المال الذي يقتات منه.. تركته باحثة عن عمل.. لماذا قد تترك أمك؟.. لا يوجد أم تترك طفلها وتذهب هذا ما أخبرني به أمومي..

ذهبتُ إلى المجندات اللاتي عملن مع والدك أو الجنيرال بالأصح.. فروت لي إحداهن التالي والقصة التي أسرتها في صدري حتى لا أحزنك.. حتى أن الجنيرال عندما علم عن بحثي لأصل الحكاية أعادني إلى قريتي.. عندما كبر جيو أرسلته ليدرس معك.. كنت أعلم أخبارك منه.. عندما مرضت وشعرت بأن موتي قد قرب جعلته يتظاهر بالمرض أو استغلّيت نزلة البرد تلك.. فاستدعيته لأسلمه الأمانة التي لا أريد أن أموت وهي في عنقي. قصتك كالتالي:

في مخزن مكتظ بالأطفال، حيث الضجيج الخليط من شهقات البكاء المكتومة وأصوات العصي التي ترتض فوق الأجساد الصغيرة، لتحشرها كالأنعام في صفوف منتظمة؛ فالزيد من الأعداد ستصل قريباً والمكان مزدحم. هناك العديد من الأطفال فهم بين من يمسح دموعه، وبين من ينادي باسم أمه يطلب النجدة، وآخر متبلد من هول الموقف. فإذا بصوت مخيف يرتعد فيهز أرجاء المخزن "كفى.. " تسمر الأطفال في أماكنهم. حتى أنفاسهم توقفت في صدورهم، وتحجرت الدموع في المقل. ثم وقف شخص كالغول من خلف مكتبه الموضوع في صدر المخزن، فتكلم بصوته الغليظ:

- "هذا المكان ليس بلا راعٍ.. يبدو أنكم لا تعلمون ماهي الأنظمة هنا" مرر نظره في وجوه الأطفال الشاحبة، وكأن الدماء قد تجمدت في عروقهم من فرط الخوف، ثم بدأ يملأ أنظمتهم على مسامعهم:

- " الكلام ممنوع وعقوبته الحبس في غرف العقاب ليوم كامل دون طعام.. محاولة الهرب ممنوعة وعقوبتها قطع إصبعين من اليد.. من لا يتبع تعليمات المشرفين يعاقب بالأعمال الشاقة لمدة أسبوع كامل.. لذا من الأفضل لكم أن تكونوا أولادًا جيدين.. " أما زبائنه من المشرفين فقد كانوا يقفون في أنحاء متفرقة من المخزن، يهزون برؤوسهم مؤيدين له؛ فالجميع هنا متشابهون على ما يبدو في الجوهر والمخبر، فكلهم من بني الأصفر بعيون صغيرة، وألبسة سوداء، وقلوب أشد سوادًا. ثم هتفوا بصوت واحد كأنهم على وشك الدخول في معركة:

" تحيا الجمهورية الاشتراكية الصينية.. تحيا.. تحيا.. تحيا " كانت صدورهم ممتلئة بالأنفعة والعزة. كانوا يرون أنفسهم أبطالًا أسطوريين أمام الأطفال الخائفين.

تقدم الأطفال إلى الأمام في صفوف لا يعرف الخلل إليها من سبيل، يبدو أن خطبة الغول في الأنظمة تركت رعبًا كبيرًا في نفوس الأطفال. الجميع أصبح كالآلات، فلا يريد أحد منهم أن يكون عرضة للعقوبة، كأن كل واحدٍ منهم قد تخلى عن طفولته وودعها إلى غير رجعة، تخلى عن فكرة العودة إلى البيت، تخلى عن رؤية والديه مرة أخرى. ثم بدأوا يمشون متتابعين، خطوة للأمام ثم يقفون، فيقف أحد الأطفال أمام مكتب الغول الذين لا يعرفون من هو، ولا لماذا هم هنا من الأساس، ثم يسلمه ورقة ويتلفظ له باسم، ثم يؤخذ الطفل خارجًا، حتى جاء دور إسماعيل، وقف كبقية الأطفال كان في عينيه شيء من عناد، كان كبركان يتأهب للانفجار، تتطاير منه حمم من هب. ضغط على أسنانه بشدة محاولًا أن يبقى هادئًا، لكن الآخر كان يقلب قصاصات بيضاء في يده، ولم يلتفت لإسماعيل فقط اكتفى بأن قال له: " أنت شيان " وأعطاه ورقة بيضاء عليها بعض الكتابات لم يفهمها الطفل ذو الأربع سنوات. همّ بقول: " التال..... " إلا أن لجام الطفل خانته، فلم يذهب إلى حيث ذهب بقية الأولاد، تحجر أمام المكتب الصغير كأنه عمود مثبت في الأرض، ثم جمع أنفاسه و انفجر في غضب: " أنا إثماعيل.. أبحث عن.. شيان .. خاصتك هذا في مكان آخر أريد أن أذهب إلى المنزل الآن أمي تنتظري " تطاير الشرر من عيني الضخم الضيقتين بدى كأنه ثور هائج، يهم بنطح فريسته. لم يتمالك

غضبه أخذ زجاجة كانت بجانبه، قبض عليها قبضة شديدة فأصبحت كالأسيرة بين يده اليسرى، فأخذ يرفع يده إلى أعلى ارتفاع اسعفته به قامته الطوية، ثم هوى بالزجاجة على رأس الطفل الصغير. لم يحرك الطفل ساكنًا، ارتقى على أرضية المخزن بلا حراك، فألقى الغول بنظرة ذات معنى لأحد المشرفين الذين كانوا بالقرب منه، فأخذ الطفل خارجًا. أما الأطفال البقية فقط أصابتهن صعقة كهربائية مما رأوا، وهم ينظرون في وجه الغول الذي كان يوحى لهم بأنه لم يأت بهم ليلعب معهم، وأن قوانينه صارمة، ولا قوة لهم على غضبه، ثم همد على كرسيه من جديد، وتابع الصغار تقدمهم في الصفوف. في المشفى قال الطبيب أن هذا الولد لن يستعيد ذاكرته إلا بصدمة قوية، لكن الجنرال كان سعيدًا جدًا وقال: " سيكون هو الصدمة لأولئك الهمج في المستقبل.. سيكون سلاحى القوي في وجوههم..".

وبذلك عشت وكأنك طفل صيني.. لقد كان خطي بأي لم أوصل لك الحقيقة عندما عرفت.. أخبرتك سابقًا بأن الجنرال قام بطردى.. هذا ولم أخبرك.. فإذا أخبرتك كانت ستحل علي كارثة.. قد لا أراك مجددًا أبدًا لذا سامحني في حقك..

خالتك المحبة لك رغم كل شيء.. كيلا "

ثنى إسماعيل الورقة، لم ينطق بشيء عيناه فقط كانت تندفق، تروي ظمأ السنين في البحث عن الذات. ليلك تبكي هي الأخرى، بقي لديها شك واحد فقط تريد أن تذبحه بسيف اليقين. تكلم إسماعيل بدون تفكير وهو ينظر باتجاه السماء شارد الذهن:

- " الكوايبس التي أراها في منامي.. رأيت أشياء مشابهة لها في كاشغر.. لقد لاحظت ذلك.. كنت أدون كل ما أراه.. عندما رأيت أختك خاتون لأول مرة أحسست بصداع رهيب في تلك الليلة.. كنت أرى في منامي امرأة تلف شعرها بتلك الطريقة.. كذلك الشجرة الكبيرة.. كنت أحلم بأي أقع من شجرة ماثلة لها.. بذلك زادت الكوايبس أكثر.. الصداع أيضًا أصبح حادًا أكثر.. عندما التقيت بالسيد مسلم.. شعرت بشعور مختلف تلك الليلة.. نبض قلبي بشكل مفاجئ.. أغمى علي يومها.. حلمت بأن أحدهم يناديني بأخي وهو يركض.. أسمع أصواتًا

مختلفة.. كنت أرى أيضاً أيّ لعب مع أطفال أتأرجح بأرجوحة مصنوعة من إطار سيارة.. كذلك التي رأيتهما أمام بيت المرأة وابنتها في كاشغر.. ملاحمها تأتيني بين الفينة والأخرى.. " كانت ليلك تنظر إليه بصدمة، إنها تقترب من الحبل بقي لها القليل لتمسكه، يجب أن تتأكد أولاً قبل إصدار أي حكم تندم عليه بعد ذلك. قاطعها الآخر بصورة من هاتفه:

- " لقد التقطت صورة لهذا.. " ناولها الهاتف، لقد كانت صورة الرمز المنحوت في جذع الشجرة الكبيرة، دائرة مكتوب فيها حرفان اكتشفت فيما بعد أنهما حرفان عربيان (إ. ل). توقفت ليلك عن الحركة، كان فمها شاغراً من الكلمات، اضطربت، ثغرها مبتسم وعينها دامعة أرادت الضحك والبكاء معاً، ثم خرت على الأرض، سجدت باكياً. إنه إسماعيل الذي شاطرته طفولتها، إنه صديق الصغر، وجعها الأول، مات والدها قبل أن تعي، لم تعش فاجعة قبل فاجعة إسماعيل. ها هو يقف أمامها الآن بعد أن سلب المحتل عقله، سرق ذكرياته معها كما حاول سرق ذاكرة الوطن من قبل. أراد الغاصب أن يلف هويته بحبل من هب، لكن مشيئة الله كانت أكبر من خطته وتديره. بكت ليلك فرحاً بلقائه، ثم بكت حزناً على عدم تذكره إياها، لا تنتهي كل القصص كما تشتبه الأنفس.

- " ليلك.. الحرب في ميدان العدو حرب غير عادلة.. سأااا.. " بصوت مهموس بعده صمت مطبق.

*

*

*

الفصل العاشر

أجواء عائلية، مشاعر دافئة، أطباق لذيذة، قلوب مفعمة بالأحاسيس والأشواق. تختلط الذكريات بعضها مع بعض، الجميع يفرغ ما اختزنه ذاكرته لسنوات، نقوم باسترجاع من بقايا الذاكرة أمانينا الجميلة. نروي على بعضنا كيف عاش كل منا بعيد عن الآخر، وكيف وجد كل منا الآخر، والحقيقة أن كل منا عاش في قلب الآخر. جاء دوري بالحديث، الأنظار كلها تحوم حولي، النساء على الجهة اليمنى والرجال على الجهة اليسرى من الطاولة. كنت أجلس في الكرسي الأمامي، أنظر إلى وجوههم بجوع الغياب، وأروي من نظراتهم عطش الفراق. " عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً " إنها حقاً وصدقاً الآن أمام ناظري، تنحنحت لأخفف تشنج حلقي وبدأت أروي:

- " في ليلة من الليالي رأيت أبي في المنام قال لي: يا عبد الله.. اجمع بين الأمانات.. ورددها على مسامعي أكثر من مرة.. بقي هذا الصوت في عقلي ولم يخرج.. كنت أدعو الله في كل ليلة ليرد إليَّ أمانة والدي.. وعزمت على فتح هذا الباب الذي أغلقته منذ زمن.. قد كنت واثقاً تماماً بأن أُمي قد لحقت والدي.. لم أكن أعلم بأن الله أبقاها تدثري بدعائها فتأنس وحشتي و تسكن ألمي.. لم أكن أعلم بأن يدًا رحيمة قد أنقذتها من أنياب الردى في غيابي.. ثم في يوم ليس ببعيد تجرأت وأرسلت أحدهم ليأتيني بخبر عنها.. قيل لي بأن المرأة التي تسكن في بيتنا قد تركت كاشغر منذ فترة قصيرة.. حاولت أن أجد أي أثر لها لكنني لم أجد.. وكلت أمري إلى الله.. وكررت عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً.. أكملت عملي ولبيت دعوة صديقي خضر في منظمته في كازاخستان لنقل صورة الداخل التركستاني.. أيضاً كنت أنقل بعض المساعدات إلى الداخل في حين سنحت لي الفرصة لذلك.. بعدها أتيت مع خضر إلى تركيا لنفس العمل التقيت بالأستاذ حميد لأول مرة.. ثم أطلعني على بعض الأعمال ذكر منها أنهم يقومون باستقبال

عدد من الحالات الإنسانية.. طلبت أن أطلع على بعضها.. توجهت إلى مقر المنظمة.. التقيت بالسيدة نور الله زوجة الأستاذ حميد.. كشفت لها عن نيتي وما جئت لأجله.. أرشدتني إلى غرفة المكتب.. وعندما فتحت الباب بعد أن أخذت الإذن بالدخول.. وجدت ما لم يكن بالحسبان.. ما لم أتوقعه.. ما ظننته مستحيلاً.. رأيت امرأة تنظر نحوي.. تحمل في يدها ملفات تقلبها.. عيناها الرقراقتان هي هي لم تتغير.. بريق عينيها لم يختف.. وجهها المدور.. أجنحة الصقر على حاجبيها.. حدقت طويلاً وكذلك فعلت.. ركضت نحوها دون وعي.. تحسست وجهها.. بدأنا بالبكاء.. بصوتها العذب نادتنني:

" عبد الله " لم أسمع اسمي هذا منذ زمن.. كنت مسلماً منذ أن تركت كاشغر.. منذ أن نزعت ذاكرتي بيدي..

خاتون يا حوريتي.. كيف وصلت؟.. كيف أتيت؟.. كيف جارت الدنيا عليك؟ خاتون يا مفري في كل فاجعة.. و يا ملجئي بعد كل معركة.. لم أحتمل المدينة في غيابك.. بعيداً عن أشعارك.. مضطربة هي الدنيا في عيني إن لم يكسوها اترانك.. تعيسة هي الأفراح إن لم يعلوها ابتسامك.. خاتون يا فرحي وحزني.. هل حقاً أتى الله بك؟؟..".

أخرجتني من سكرة اللقاء فقالت: " لقد وجدت شيئاً، مررت إصبعها على اسم محشور في كشف القادمين الجدد إلى قيصري، تأملته جيداً ظننت أنني لم أقرأه بدقة عدت لقراءته مراراً.. (السيدة فاطمة إحسان درغا) .. وثبت روعي لله شاكرة، يامن تحيي العظام وهي رميم، مرغت جبهتي على الأرض ساجداً، رب لا أوفيك حقلك. كانت خاتون تسجد خلفي أسمع شهقاتها و قمتمة الحمد بشفتيها. ركضنا فوراً إلى السيدة نور الله لنجد أين تنزل أُمي، ركضنا كطفلين عادا من الروضة يريدان الارتقاء في حضن أمهما.

وفي منزل السيدة نور الله، كانت أُمي تجلس على سجاداتها كعادتها، تعطي كل منا نصيبه في الدعاء، تبتدأ بأبي البطل، ثم تبدأ بي وتختتم بإسماعيل، إنها عادتها الدائمة منذ كنا صغاراً.

صمتُ في حرم اللقاء، تكلمت الأحضان، ربَّ صمت أبلغ من كلام، انكبت أقبل أُمي وأشتمها. في البداية لم تعرف من أنا، ثم جرت عليها قوانين الأمومة، إني لأشتم ربح يوسف.. عرفتني أُمي، قبلتها ما لا يحصى من القبل، مرغت وجهي تحت أقدامها، بكيت كطفل صغير في حجرها، شهمت حتى ظننت أن أنفاسي ستنقطع. خاتون هي الأخرى حصلت على جائزة صبرها، مليكة الصغيرة قد كبرت أختها الطيبة تقف أمامها متحجرة، تحاول أن تركب صورة الماضي لخاتون مع المرأة التي تقف أمامها الآن. غمرتها خاتون بعطفها كما كانت تفعل دائماً في صغرها. ذلك اليوم لم يكن اعتيادياً كان تدبيراً إلهياً، وكأن ابتهالاتنا جميعاً صُبت لتلتقي في هذا اليوم، كل الأدعية التي أرسلناها إلى السماء بحرارة تقاطعت هنا في هذا المكان من الأرض. لحظات حتى جاءني اتصال من صديقي خضر أوروولي يخبرني فيه بأن أمراً غريباً قد حدث ولا يحتمل الانتظار، ذهبت مسرعاً إلى المشفى وجدت هناك ليلك ابنة خالتي، حدقت في وجهها. أهي أيضاً أتى بها القدر إلى هنا؟ ثم تذكرت ما جئت لأجله قلت لخضر الذي يبدو عليه الفرح والقلق معاً أين الشاب؟ وتركت ليلك في صدمتها، ركضتُ نحوه الشاب وإذا به مغمى عليه كتلك اللبلة في ألماتي، خرجت إلى ليلك التي لا زالت تشك في أمري لقد كانت صغيرة على أن تذكرني الآن وأنا بهذه الهيئة.

- " أخبريني.. ما حدث لهذا الشاب.. ألم يكن صينياً يعمل في مجال الإعلام؟؟.. " لم تقل لي شيئاً، ناولتني الظرف الذي يحمل الرسالة.. قرأته بمشاعر مختلطة، حمدت الله على نجاة أخي، وازداد غيظي على من كان السبب في سلبه منا. انكبت عليه باكياً حتى استيقظ. هذه المرة رأيت في عينيه بريقاً غير الذي عهدته، لقد كان أخي، تتم باسمي عدة مرات. تحسس بيده المرتعشة وشمة وجهي، كالوشمة الموجودة أيضاً في وجهه " أنت أخي.. " قال بوهن. لقد ملك الدنيا. بدون تفكير حملت أخي وذهبت به إلى منزل السيدة نور الله وزوجها، رافقتنا ليلك، رميت بأخي في حجر أُمي " أدبت الأمانة يا أبي.. " صرخت بملء

صوتي. لم أتم تلك الليلة، كل من أحب حولي لا ينقصنا شيء ينقصنا الوطن الذي سنستعيده معاً.

كانت أُمي تجلس عن يميني بجانبها خاتون، تتبعها ليلك ومليكة، إنهن متشابهات في كثير من الملامح، يشبهن خالتي رحمها الله. عن يساري كان إسماعيل لم يعد طفلاً يجلس معصوب الرأس من إثر الضربة التي تلقاها على حافة البركة في باحة الفندق حين أغمى عليه. السيدة نور الله والأستاذ حميد يجلسون حول الطاولة معنا، تأثرا كثيراً. اغنيينا العشاء، وسار كل واحد منا على رأس عمله. نحن قوم لا نرتاح حتى نكون.. حتى نصل.. لدينا الكثير من الأشياء لربها للعالم، نحن الجذوع الصغيرة الغضة التي تنمو متحدة كل الظروف القاسية، تتناول رغم تشذيبها، رغم قص أطرافها، نتجذر عميقاً لنثبت على الإيمان بها. نحن الذي قلناها منذ أن وطئت قدم المعتدي أرضنا: "لن نبرح حتى نعيدها..". لا تكتمل فرحة اللقاء إلا في دورها وأسواقها، في أزقتها وحاراتها، في صوت المآذن، في محارب المساجد، بين جموع المؤمنين، بين سواعد العاملين، في عرس الوطن المنتظر.

*

*

*

" هناك زواراً للعبادة.. دكتورة.. " قالت الفتاة التي تقوم بالتسجيل في صالة الانتظار بعد أن فتحت باب الغرفة.

هناك أدوات طبية موضوعة على الطاولة، سرير للمعاينة، شراشف بيضاء، لوحات مكتوبة باللغتين الأيغورية والتركية فيها معلومات عن الطب الأيغوري. تجلس مليكة خلف مكتبها الصغير، بملابسها البيضاء وحجابها الناصع كأنها حمامة جاءت من فردوس الرحمة. كانت قد سعت هي والسيدة نور الله بفتح عيادة صغيرة تطب بالطب الأيغور وفقاً لما ورثه الأجداد بالإضافة إلى أبحاث مليكة في علم الأعشاب من منظرو حديث، نجح الأمر بعد اختبار قدرة مليكة على ذلك، كما قدمت شهادات الخبرة التي عملت بها في عيادة الدكتورة خالدة

وعرضت آخر الأبحاث التي توصلت لها في كاشغر. تتوالى زيارة المنظمات الأويغورية لها منذ فتحها للعيادة، أيضًا أعداد المرضى تتزايد مع الوقت، كانت تراجع حالات المرضى بينما طرقت فتناه التسجيل الباب.

- " ليتفضلوا.. " قالت مليكة برزانة.
- " السلام عليكم.. " بادر السيد خضر أورو زلي بالتحية عند دخوله مع صديقه إلى الغرفة.
- " وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. " ردتها باحترام.
- " نحن هنا ننظر إلى أوضاع الأيغور الذين تساعدكم المنظمات الإنسانية.. دلي الأستاذ حميد عليك.. أتيت لرؤية مشروعك.. في الحقيقة ظننته أصغر من هذا.. هذا أمر ممتاز..".
- " هذا من فضل الله ثم من قدسية المشروع الأكبر الذي نحاول الوصول إليه..".
- " التحرير.. " قال ستوق الذي كان بجانب السيد خضر _ كان قد حضر هو الآخر بصحبة السيد خضر وإسماعيل ومعهم إلى تركيا للتعرف إلى أعمال المنظمات التعريفية والإنسانية هنا _ لقد طارت الكلمة من ثغره بدون تكلف قالها بانسجام مع كلمات مليكة، التي ظلت محدقة في وجهه، كانه صوتًا تعرفه، أشاحت بوجهها ثم أكملت حديثها مع السيد خضر:
- " نحن في حرب بقاء يا سيدي.. المشروع الأكبر للصين في وطننا هو أن تحولنا إلى أقلية في إقليم تابع لها.. أخذ الأطفال من أهاليهم وتربيتهم في دور الأيتام التابعة لها.. احتجاز مليون شخص في معسكرات التأهيل.. أخذ فتيات وتزوجهم بشبان صينيين.. الترغيب المستمر في انتقال الصينيون إلى تركستان وخاصة من قبيلة الهان.. وضع محفريات للزيجات المتكونة من طرف أيغوري وآخر هاني كإعطاء بيت وراتب شهري وغيرها من المغريات الجذابة.. لكن شيئًا من هذا لا ولن يحدث.. طالما أن هناك دمًا أويغوريًا يسر في عروقنا لن يأخذ أحدًا أرضنا منا ولو كلفنا ذلك أرواحنا.. في كاشغر في أورمتشي في أقسو في كل المدن

في الداخل نحن نقاوم.. في المهجر نقاوم في كازاخستان.. في أوزباكستان.. في تركيا.. في أي قطر من أقطار الأرض لهجتنا لا تختلف.. سنعود يوماً إلى حيث ننتمي..".

- "سلمت يا طيبة الأصل.." قال ستوق بانهار .
- "أتى أحد المرضى.." قالت فتاة الاستقبال على استحياء لمقاطعتها حديثهم.
- تنحى السيد خضر جانباً ثم ذهب مطمئن البال، سالي الخاطر ينظر إلى الحياة بيقين أكبر. هناك آلام دفينه في هذا الشعب لكنه كأجداده (البخاري، الترمذي، أحمد يسوي، أرطغرل بك، وأرسلان ألب،....) يخرج من المحنة آلاف المنح.
- مرت في مخيلته المعارك القديمة مع المغول والصليبيين، تذكر التناحر المريع مع الصينيين. لقد عاشت تركستان مئات القصص، لكن الحرب سجال كما يقولون، لا يظفر الظالم إلا ببعض الجولات، أما المعركة الفاصلة مؤكداً أنها ستكون في صف الحقيقة، ستكون أيغورية بامتياز.

مرهقة الجسد سارت مليكة باتجاه المنزل بعد يوم طويل، تشي معطفها الطبي الأبيض، تغلق أبواب العيادة، تخطو خطوات بسيطة، تنتهد براحة، ليست الآلام فقط من تأتي مجتمعة، الأفراح تفعل ذلك أيضاً. تفكرت في عملها الجديد كم حلمت بأن يصبح لها عيادة خاصة، كم حلمت بأن تطور الطب الأيغوري وتريه للعالم، علم أجدادها الثمين، تذكرت الليالي التي دعت الله فيها أن يجمعها بأختيتها فاجتمعن في مكان واحد بعد سنين طويلة من ظلم الشتات، ها هو الغيم ينجلي عن وجه أحلامها المستتير.

- "إذا سمحت يا مليكة.." أصابتها رعشة حين باغتها الصوت، التفتت لتنظر.
- "أعتذر إن أخفكتك.." ابتعد ستوق عنها قليلاً، هزت رأسها بالنفي، ظلت صامته بعيون مشدودة، قد سمعت بأن الأشكال تتشابه، لكن أحد لم يخبرها أن الأصوات تملك أشباهاً.
- "لا.. لا.. تفضل.." قالت بعد أن طال السكوت.

- " هل وصلتكِ الرسالة التي أعطيتها لأمي.. " حدقت فيه طويلاً " هل أعرفك لأعرف أملك " أضمرتها في نفسها. ناولها قصاصة صغيرة، أخذتها منه في دهشة.

" اخبروا حوريقي بأني بما على لقاء..

وأن جسر الأمنيات سيسمح بالوصول..

فإما معاً على طريق الجهاد..

وإما شراباً من كأس الشهادة..

(ع. ح)

رفعت يديها المرتعشتين إلى ثغرها، كتمت شهقتها بصعوبة، استقرت دمعات في زوايا عينيها. أهى الأمنية الأخيرة؟ هل ركضت نحوها تقول لها لا تنسيني فتغلقي عقد الأمنيات من دوني؟ أهو حقاً هو؟ عين المقاومة؟ كف الرحمة على اليتامى والمكالمين؟ أخذت تبكي دون صوت.

- " قد تبدو ملامحي مختلفة.. لكن قلبي مازال على عهده.. " قالها وهو ينظر نحو السماء. ثم أردف " يا مليكة.. لا تخزني على من غير ملامح وجهه.. فملاحم الوجه تألف أياً كانت.. احزني على ذاك الذي أذاب هويته ومسح كيانه.. لا تعجبي من لون الطين إذا تغير.. لكن أعجبي من صفو الروح إذا تعكر.."

- " لكن اسمك.. " سألت على وجل.

- " أنا عبد الحق.. الحق جل جلاله الذي أعطى الحق.. ذلك الحق الذي نناضل ليصمد.. الحق الذي يتجمع في نظرة المظلوم.. الحق الذي يخرج في أنين الأشلاء الممزقة في السجون.. الحق الذي في صدور المشتاقين.. وأنا ستوق.. ستوق بغراخان الذي غير تاريخ الإسلام فينا.. الذي بين أن لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالأسبقية والتفاني في خدمة راية الله.. ستوق الذي سنحدث عنه أشبالنا قبل النوم.. وعلى قصصه سينام صغارنا في الأحضان.. سيأكلون شجاعته مع أرغفة الخبز.. سنحتسي عزته في قهوة الصباح.. ونسقي أثره

أشجار الوطن.. الأسماء لا تصنع الرجال يا مليكة.. الأفعال من تعطي الأهمية
للأشخاص وتنتخيرهم ليزينوا جدران التاريخ بأعمالهم الجسورة..".

*

*

*

في الساحة الكبيرة حيث الأشجار العالية، والصرح الواسع، بالقرب من
جامع السلطان أحمد في منطقة السلطان أحمد في إسطنبول تقف آيا صوفيا شامخة.
هنا المعنى الحقيقي للتعيش الإنساني، يمثل هذا الرمز قبول الإسلام لوجود الآخر،
التأصيل للتعامل معه باختلافه، فرض حقوقه وواجباته. لم يسمع أحدهم أن المسلمين
قد أعادوا تأهيل البشر بمعسكرات غسل للأدمغة. عندما فتح السلطان محمد خان
الثاني الملقب (بالفاتح) القسطنطينية والدول المجاورة صرح تصريحًا يمثل لب الإسلام
حيث قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا السلطان محمد خان الفاتح

أعلن للعالم أجمع أن

أهل البوسنة الفرنسييكان قد مُنحوا بموجب هذا فرمان السلطاني حماية جلالتي.

نحن نأمر بأن:

لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم وصلبهم !

وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي. وبأن أولئك الذين هجروا ديارهم منهم، سيحظون
بالأمان والحرية.

وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليا.

لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلًا، وزيرًا، رجل دين، أو من خدمنا سيتعرض لهم في
شرفهم أو في أنفسهم !

لا أحد سوف يهدد، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم، ممتلكاتهم، وكنائسهم وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية...

وبإعلان هذا فرمان، أقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين أجمعين بأنه؛ لن نسمح بأن يخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا فرمان !

انتهى "

إنها كلمات لم تكتب بماء الذهب بل بماء العدل الذي أتى به نبي الرحمة.

تجولنا في آيا صوفيا، دعونا للسلطان الفاتح محمد، ثم سرنا باتجاه مسجد السلطان أحمد، أو المسجد الأزرق. ذبت عشقاً لزخرفته العثمانية، تخيلت أجدادي يودعون إخوتهم قبل الهجرة، تخيلتهم يسرون من بلاد ما وراء النهر، من نهر القوقاز. رأيت ردعهم للمتربصين، رأيتهم يتجذرون هنا على الأناضول، رأيتهم يبنون الدولة العظمى لبنة لبنة، رأيتهم يفتحون البلاد. وكأني أستمع للنبي صلى الله عليه وسلم يبشر بهم، يثني على جيشهم وأميرهم كأني أسمعه يقول: ((لَتَفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنَعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنَعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ)).

على السجاد الأحمر، وتحت الإنارة الهادئة المعلقة فوق الرؤوس، وفي هيب المشاعر النورانية تقدمت الجميع ورفعت يدي مكبراً للصلاة، واصطف الآخرون خلفي. كنت أرتمي بزة سوداء جديدة، عبد الحق وإسماعيل كذلك. صلت النساء خلفنا وقفت خاتون، ليلك، مليكة وأمي، كانت الفتيات يلبسن ثياباً بيضاء. أردنا أن نفتتح حياة السعادة لكل منا بصلاة شكر، مشاعرنا مضطربة، عيوننا ندية وقلوبنا لا تتوقف عن الحفقان.

انصرف الضيوف إلى بيوتهم، لكن السعادة بقت حاضرة في منزلنا هذه الليلة. أمي تجلس في واجهة الصالة، تقدم أخي إسماعيل ويده زوجته ليلك، قبلًا والدتي واحتضناها تمتن لهما السعادة الأبدية والذرية الصالحة. عبدالحق ومليكة أخذًا حظهما من والدتي أيضًا. جاء دوري التفت إلى خاتون ومسكت معصمها برفق، انكبت على أمي مقبلاً إياها، أشتم منها رائحة الصبر، رائحة الثبات والنضال، أشتم رائحة الفرج بعد الهموم المتكالبية، تمتمت بكلمات الحمد والشكر فلولاه جل في علاه لما أشرقت شمس هذه الأيام.

- " كيف وجدتِ طريقكِ إلي؟؟ .. " سألتُ خاتون مماًزحاً عندما خلا المكان من عدانا.
- " بفضل شامتكِ التي تزين وجهك.. " ضحكت وضحكت لضحكها، ضممتُ كفيها بيدي :
- " أتعلمين يا خاتون..
ما أشبه الأنثى بالوطن بعد الشتات..
بالماء بعد جفاف الروح.. بالغذاء بعد مجاعة القلب..
الأنثى هي المتكأ والسند..
إن كنت محارباً فلن يبقيك على قيد النضال سوى أنثى..
إن كنت معركة فهي استراحتك.. وإن كنت خيلاً فهي سرجك..
وإن كنت سيفاً فهي غمدك.. وأحياناً تكون هي الجيش الذي تقاتل به العالم أجمع..
خاتون يا كنزي الثمين..
أنتِ جيشي وكل ألويتي التي سأعود بها إلى تركستان.. "

انتهت في 11/12/2017م

عدن-اليمن